تفسير سورة الشورى

إعداد الدكتورة

أمل أحمد غلوش

مدرس التفسير بكلية الدراسات بالمنصورة

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد

فإن القرآن الكريم كتاب الله أنزله إحياء للقلوب، وتزكية للنفوس، وتربية للفرد على قيم الحق والعدل والحرية، وإرشادا للمجتمعات إلى طريق الخير والصلاح، حتى ينعم الناس بالسعادة والأمن، وتسود الأرض العدالة والرخاء، فهدى الناس وأرشدهم إلى سنن الله في تطور المجتمعات، والسنن والقوانين التي تقود إلى التأخر والتخلف، ذلك أن الله تعالى جعل للمجتمعات سننا وقوانين، كما جعل للكون سننا وقوانين، وإن كان الناس لا يستطيعون إغفال هذه السنن الكونية والقوانين الطبيعية عند فهم الكون، فإنه لا يمكن التغافل أو التغاضي عن سنن الله في المجتمعات عند السعي لرقيها وتقدمها.

وسورة الشورى من السور التي ترشد إلى سنن الله في تقدم المجتمعات على أساس من الرقي والحرية، والشورى.

ولذا رأيت أن أفسر سورة الشورى تفسير يجمع بين الدراسة التحليلية، والدراسة الموضوعية لكشف المقاصد والهدايات التي تحتويها السورة، وهي مع كثرتها وتنوعها تصب في وحدة واحدة موضوعها " **مقومات نجاح الشورى في توحيد المجتمع** ".

وقد تعلقت نفسي بالكشف عن الوحدة الموضوعية للسورة لأني أرى أن تقسيم القرآن الكريم إلى سور يرمي إلى حكمة إلهية تجعل لكل سورة شخصيتها المستقلة، ومعالمها البارزة التي تميزها عن غيرها، كما يفصل سور المدينة ما هو بداخله عما خارجه، ولذا لابد من البحث في كل سورة عن العلائق المختلفة التي نسجت بين آيات السورة حتى جعلت منها نسيجا واحدا رمزت له باسم السورة.

ويساعد البحث عن الوحدة الموضوعية للسور على الكشف عن الغاية النبيلة من الجمع الإلهي لعدة آيات بعينها في سورة واحدة بحيث تؤلف وحدة واحدة متجانسة، وهي بهذا تخالف التفسير الموضوعي، إذ هو محاولة لفهم كلام الله وآياته المبثوثة في أكثر من سورة لتشكيل وجهة نظر قرآنية نحو موضوع معين.

ولذا تختلف طرائقهما ومناهجهما مع اتحاد الهدف بينهما في خدمة كتاب الله

وقد اعتمد مسلكي في تحديد الوحدة الموضوعية لسورة الشورى بعد استمداد العون والتوفيق من الله تعالى على ما يلي:

١- **الاستفادة من المقدمات التي اعتاد المفسرون ذكرها** عند التعريف بالسورة والربط بينها لاستخراج الموضوع، وتحديد الهدف، وأقصد بتلك المقدمات: اسم السورة، ومناسبتها لما قبلها، ومكية السورة.

٢- **تحديد فاتحة السورة، وخاتمتها** وإيجاد العلاقة بينهما، فإن الفاتحة تمهد لأهداف السورة، والخاتمة تلخيص وتأكيد عليها.

٣- **تقسيم السورة إلى أجزاء**، واستنباط المقصد الخاص بكل جزء بما يربط بينه وبين موضوع السورة.

٤- **محاولة إيجاد العلاقة بين هذه الأجزاء**، هل هي علاقة عموم وخصوص أم مقدمة ونتيجة، أم سيقت مساق التمثيل، أو التعليل، أو التفريع، والتنظير، أم هي على سبيل التطور المرحلي في الوقوع الزماني وغير ذلك بحيث تصب هذه الأجزاء في النهاية في توضيح الموضوع العام.

وقد ظهرت لي أهمية تفسير سورة الشورى بالجمع بين الدراسة التحليلية والوحدة الموضوعية فيما يلي: -

١) **أن أشرف بخدمة كتاب الله تعالى**، طمعا في المثوبة، لعلي أكون ممن قال فيهم النبي غ فيما رواه عثمان بن عفان ﷺ عن النبي غ قال: **(خيركم من تعلم القرآن وعلمه)** (١)

٢) **محاولة الوصول إلى رؤية القرآن للدعائم والمقومات** التي تجعل الشورى تساهم في نجاح المجتمعات بفاعلية.

٣) **تعظيم الفائدة في إظهار هدايات السورة**، واستخراج مقاصدها ومراميها.

٤) **تقديم جهد متواضع أساهم من خلاله في تدعيم مناهج** وطرق للوحدة الموضوعية تمكن من النظر إلى سور القرآن الكريم نظرة متكاملة تبرز إعجازه، وتساهم في اكتشاف هدايته للفرد والمجتمع.

وقد خرج البحث مكونا من مقدمة، وفصلين، وخاتمة.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن، حديث رقم: ٤٧٤٣.

أما المقدمة: فتشمل التعريف بالموضوع، وأهميته، ومنهج البحث فيه.
ثم كان الفصل الأول، وتناول التعريف بالسورة، وتحديد موضوع لها.
وقد ضم أربعة مباحث:
المبحث الأول: التعريف باسم السورة.
المبحث الثاني: التعريف بمكية السورة ودلالة ذلك.
وفيه مطلبان:
المطلب الأول: تحديد مكية السورة.
المطلب الثاني: دلالات مكية سورة الشورى.
المبحث الثالث: مناسبات السورة
وفيه مطلبان:
المطلب الأول: مناسبة السورة لما قبلها نزولا.
المطلب الثاني: مناسبة السورة لما قبلها في المصحف.
المبحث الرابع: الموضوع العام للسورة.
ثم كان الفصل الثاني: تفسير سورة الشورى
وخرج في مباحث كالتالي:
المبحث الأول: مقدمات ضرورية حول الشورى.
المبحث الثاني: الاختلاف ظاهرة اجتماعية داعمة للشورى.
وفيه مطلبان:
المطلب الأول: الاختلاف سنة إلهية عامة.
المطلب الثاني: الاختلاف بين الناس (الأنواع، الأسباب)
المبحث الثالث: الانتقال من الاختلاف إلى الفرقة.
وفيه مطلبان:
المطلب الأول: سبل الوقاية من الفرقة، والأسباب الدافعة لها.
المطلب الثاني: كيفية علاج الفرقة إن وقعت.
المبحث الرابع: جنوح الفرقاء إلى الخصومة اللفظية.
المبحث الخامس: ظهور البغي.
وفيه مطلبان:

المطلب الأول: سمات مرحلة البغي.
المطلب الثاني: علاج البغي.
المبحث السادس: توصيات السورة لتوحيد المجتمع.
ثم الخاتمة وتضم ملخصا موضوعيا للسورة، وإبرازا لأهم النتائج والتوصيات التي أرشدت إليها السورة.

وقد سرت في البحث على المنهج التالي: -

١- **الرجوع إلى كتب التفسير الأصلية**، وكتب علوم القرآن، لفهم السورة وما يتعلق بها.
٢- **تخريج الأحاديث من مصادرها الأصلية** مع الحكم على درجتها.
٣- **الاستعانة بأقوال العلماء والمفكرين** التي تسهم في إيضاح موضوع السورة والربط بين أجزائه.
٤- **جعلت طريقة عرض التفسير كالتالي:**

١) قسمت السورة إلى مجموعات مستقلة من الآيات.
٢) وضعت لكل مجموعة عنوانا منبثقا من الآيات، وله علاقة بالموضوع الذي تتكلم عنه السورة، وجعلته عنوان المبحث.
٣) بدأت بالدراسة التحليلية لإبراز معاني المفردات، وأسباب النزول، والمناسبة بين الآيات، والمعنى الإجمالي.
٤) أعقبت ذلك ببيان العناصر الموضوعية في كل مجموعة من الآيات، مع الربط بينها وبين عناصر المجموعة السابقة.

هذا وإني لأسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت في تفسيري، وأصبت في بيان الصواب وإنه ولي ذلك والقادر عليه.

الفصل الأول
التعريف بالسورة
وتحديد الموضوع

تمهيد

تدور كل سورة طالت أو قصرت حول قضية واحدة يعبر عنها اسمها، وتظهرها صفاتها، وتمهد لها سابقتها من السور، وتترجم عنها فاتحتها قبل أن تلخص تلخيصا موجزا في الخاتمة.

ولذا لا غنى لأي دارس لسورة من سور القرآن عن التعرض لكل هذه الأمور حتى يستطيع فهم السورة، وتحديد مقاصدها وموضوعها.

ولذا وضعت بين يدي السورة تعريفا بالسورة من حيث الاسم، وتحديد مكية السورة، وعلاقتها بما قبلها نزولا، وأهم ما حوته فاتحتها وخاتمتها.

المبحث الأول
التعريف باسم السورة

تعددت أسماء سورة الشورى، فيقال لها: سورة شورى، وسميت في المصحف سورة الشورى، واشتهرت عند السلف بحم عسق.

وللوقوف على معنى هذا الاسم نتناول معنى كلمة الشورى في اللغة، والاصطلاح.

المطلب الأول
تعريف الشورى لغة

تعود كلمة الشورى إلى مادة الشين، والواو، والراء، أو الشين، والألف، والراء.

يقول ابن منظور: ويشار العسل شوره شَوْارا، وشِيَارا، وشيارَة، ومشارا، ومشارة، وشار العسل يشوره، واشتار يشتاره [1].

وتحمل مادة الشورى على اختلاف صورها عدة معان: -

١- حسن المنظر والهيئة:

يقول ابن منظور: " الشاره، والشورة الحُسن والهيئة واللباس.

وقيل: الشورة الهيئة، والشَورة بفتح الشين: الهيئة.

والشورة بفتح الشين: اللباس.

قال ابن الأثير: هي بالضم الجمال والحسن، كأنه من الشور وهو عرض الشيء وإظهاره.

و**المشوار:** المنظر، يقال: فلان حسن الشورة أي حسن اللباس" [2].

٢- الاستخراج:

ومنه شار العسل: إذا اجتناه واستخرجه من خلاياه ومواضعه، وشرت الدابة: أي أخرجتها فأظهرت جريها فأقبلت بها وأدبرت لأعرضها للبيع.

والمشوار: متاع البيت لأنه يظهر للناظر، والإشارة: إخراج ما في نفسك وإظهاره.

ومنه المشوار بمعنى المنظر، لأنه يظهر للناس ويخرج للناظرين" [1].

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة شور، و القاموس المحيط مادة شار

(٢) المرجع السابق.

٣- الطلب:

وهو متفرع عن المعنى السابق، لأن الشيء لا يخرج من ذاته بل بطلب، فالعسل يخرجه النحال، والدابة يعرضها البائع، والمشوار بمعنى المظهر يسعى صاحبه في تحسينه وتجميله.

المطلب الثاني
تعريف الشورى اصطلاحا

تعددت تعريفات العلماء للشورى:

يقول الراغب: " المشورة استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض" [٢].

ويقول القرطبي:" استخراج الرأي" [٣].

ويقول ابن عاشور:" إبداء الرأي في عمل يريد أن يعمله من يشاور" [٤].

ويقول الرازي:" الشورى استجماع الرأي" [٥]

ويقول الخازن:" استخراج الرأي بما فيه مصلحة " [٦].

ومن خلال هذه التعريفات يمكن وضع تعريف جامع للشورى: بأنها استخراج الرأي في قضية من القضايا بمراجعة البعض إلى البعض، وتقليب الموضوع من جميع أطرافه للوصول إلى المصلحة من كافة جوانبها، وتحقيق المنفعة.

شرح التعريف:

(استخراج الرأي) هو أصل في التعريف ينص على أن الأصل في الشورى المبادرة إلى طلب الرأي من الغير، وتخرج به النصيحة، فإنها مبادرة من المرء بإبداء رأيه في

---

(١) الصحاح للجوهري ٢/ ٧٠٤، ٧٠٥.

(٢)المفردات للراغب ص٣٧٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ١٧٢.

(٤) التحرير و التنوير ٢/ ٤٣٨.

(٥) مفاتيح الغيب ٦/ ٤٢١.

(٦) تفسير الخازن ١/ ٢٣٦.

مصلحة رآها لغيره من غير طلب منه، **كما في نصيحة أخت موسى** عليه السلام لبيت فرعون، قال ﷻ: ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ (١).

(بمراجعة البعض إلى البعض) لتدل على أن أقل الشورى اثنين، وتفيد اشتراك كلا الطرفين – الطالب للرأي والمطلوب منه – في مناقشة الموضوع، وتقليبه وعرض إيجابياته وسلبياته وما يتطلبه ذلك من المعارضة والاختلاف.

ويخرج بهذا القيد (الفتوى) فإنها الجواب عما يشكل من الحوادث والأحكام (٢) **ولا تكون إلا من قبل المتخصصين والعلماء**، فتؤخذ على سبيل القطع بدون معارضة، **ولذا قال السجين الناجي ليوسف** عليه السلام طالبا منه تأويل رؤيا الملك ما قاله ﷻ: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

فقول السجين ليوسف ﴿ أَفْتِنَا ﴾ يتيح له عرض رأي، والأمر به دون مراجعة، ولذا قال يوسف (فذروه في سنبله). ﴿ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ (٤)

(للوصول للمصلحة من جميع جوانبها) وهو هدف أصيل للشورى، إذ أن المستشير ليس منعدم الإحساس بالمسئولية، ولكنه طامع في لوصول إلى المصلحة الكبرى، وتفويت المفسدة.

---

(١) سورة القصص الآية: ١٢.
(٢) المفردات للراغب ص ٣٧٣.
(٣) سورة يوسف الآية: ٤٦.
(٤) سورة يوسف الآية: ٤٧.

المبحث الثاني
التعريف بمكية السورة
ودلالة ذلك

تعتبر سورة الشورى من السور المكية التي نزلت قبل الهجرة، وقد انعكس ذلك على القضايا والموضوعات التي تتناولها السورة.

وسوف أتعرض لهذه الأمور بالتفصيل من خلال هذا المبحث الذي جعلته على عدة مطالب: -

المطلب الأول
تحديد مكية السورة

اختلف العلماء حول القول بمكية السورة على قولين:

القول الأول: أنها كلها مكية، وهذا رأي الجمهور [١].

القول الثاني: مكية إلا بضع آيات فإنها مدنية.

ثم اختلفوا في تحديد هذا القدر المتبقي على أقوال: [٢]

١- **أنها أربع آيات** من أول قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [٣] إلى آخر الآيات الأربع.

٢- أن المدني منها قوله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[٤] إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [٥]، وهاتان الآيتان داخلتان في الآيات الأربع السابقة.

٣- ما رواه الحاكم أن المدني قوله ﷻ: ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [٦] قيل: نزلت في أهل الصفة.

---

(١) الإتقان للسيوطي ١/ ٥٨.

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٣.

(٣) سورة الشورى الآية: ٢٣.

(٤) سورة الشورى الآية: ٢٣.

(٥) سورة الشورى الآية: ٢٤.

(٦) سورة الشورى الآية: ٢٧.

٤- أن قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾[١] إلى قوله ﷻ: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾[٢] نزلت بالمدينة.

وبهذا يوجد قولان في مكية السورة: القول بمكيتها كلها، والقول باستثناء البعض.

وحتى يمكن الترجيح بين هذين القولين لابد من تقرير بعض الأمور:-

١) **أن الاعتماد في معرفة المكي و المدني متوقف** في أغلبه على النقل عن طريق الصحابة الذين عاصروا نزول الوحي، ووقفوا على أسباب النزول وشاهدوا ملابساته، إلا أن هذه الراويات قد تتعدد وتتفاوت قوة وضعفا.

٢) **أن كثيرا من الآيات والسور لم يصلنا فيها نص صريح** بشأن مكيتها، أو مدنيتها، مما جعل العلماء يقومون بالاجتهاد للحكم عليها.

" **للمكي والمدني طريقان:** سماعي يقوم على النقل، وقياسي يقوم الناس من خلاله بالاجتهاد "[٣]

٣) **أن هذا الاجتهاد يقوم على الاستفادة من خصائص القرآن** الموضوعية والأسلوبية، وأحداثه العامة في كلتا مرحلتيه المكية والمدنية، ثم القياس عليها لبيان حقيقة انتماء النص إلى المرحلة المكية والمدنية.

٤) **اختلاف صيغ الصحابة في نقل أسباب النزول.**

يقول السيوطي: " تنازع العلماء في قول الصحابة نزلت هذه الآية في كذا، هل يجري مجرى المسند، كما لو ذكر السبب الذي نزلت لأجله، أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بسند ؟

فالبخاري يدخله فيه، وغيره لا يدخله فيه بخلاف ما إذا ذكر سبب نزلت فيه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا السند" [٤].

---

(١) سورة الشورى الآية: ٣٩.

(٢) سورة الشورى الآية: ٤١.

(٣) الإتقان للسيوطي ١/ ١٩، ٨٢ بتصرف.

(٤) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٢٧.

ويقول الزركشي: " قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا جنس النقل لما وقع" (١).

وفي ضوء هذه الحقائق السابقة يمكن التعليق على الأقوال الواردة في مدنية بعض آيات سورة الشورى على النحو التالي:

أولاً : أن القول بمدنية الآيات من أول قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (٢) اعتمد على ما رواه ابن جرير قال: حدثنا أبو كريب قال: ثنا مالك بن إسماعيل قال: ثنا عبد السلام قال: ثنا يزيد بن أبي زياد، عن مقسم،عن ابن عباس **م** قال: **(قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا، فكأنهم فخروا قال ابن عباس م ، أو العباس ﷺ، شك عبد السلام: لنا الفضل علـيكم، فبلـغ ذلـك رسـول الله ﷺ، فأتـاهم فـي مجالـسهم، فقـال غ : " يـا معـشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي ؟**

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال غ : " ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله بي ؟.

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال غ : " أفلا تجيبوني ؟ ".

قالوا: ما نقول يا رسول الله ؟.

قـال غ : " ألا تقولـون: ألـم يخرجـك قومـك فآويـنـاك، أولـم يكـذبوك فـصدقناك، أولـم يخذلوك فنصرناك ؟ " قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله قال: فنزلت قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (٣).

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٣٢، والإتقان ١/ ١٢٧.

(٢) سورة الشورى الآية: ٢٣.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، كتاب سورة الشورى، باب القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ﴾، حديث رقم: ٢٨٢٤٩.

وبالنظر في هذه الرواية نلاحظ ما يلي:

١- أن في إسناد هذه الرواية يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف [١]

٢- أن هذه الرواية ذكرت في الصحيحين في قسم غنائم حنين، ولكن بدون ذكر هذه الآية [٢].

٣- لا يظهر من هذه الآية وسياق الرواية مناسبة، فإن الآيات تتكلم عن قرابة النبي ﷺ وهي لقريش، والرواية خطاب للأنصار.

فالأولى أن تحمل الآية على مخاطبة كفار قريش لقرابتهم من النبي ﷺ، وتكون الآية مكية نزلت قبل الهجرة خطابا لكفار قريش.

ويؤيد ذلك ما رواه الحاكم في صحيحه عن الشعبي، قال: **(أكثر الناس علينا في هذه الآية ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾، فكتبنا إلى ابن عباس م نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس م : إن رسول الله ﷺ " كان أوسط بيت في قريش ليس بطن من بطونهم إلا قد ولده " فقال الله ﷻ: قل لا أسألكم عليه أجرا إلى ما أدعوكم إليه إلا أن تودوني بقرابتي منكم وتحفظوني بها)** [٣].

ثانيا : أن القول بأن قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [٤] أية مدنية لنزولها في أهل الصفة لا يستقيم لما يلي:

١- عدم ورود رواية صحيحة عن أحد من الصحابة الذين عاصروا التنزيل.

٢- أن صيغة (نزلت في) تدل على أهل الصفة داخلين في حكم الآية، لا أنها نزلت بسببهم.

---

(١) فتح القدير ٤/ ٥٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ١١٢، وينظر صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف – حديث: ٤٣٣٠، ٧/ ٦٤٤.

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم عسق، حديث رقم: ٣٥٩٤، وقال صحيح على شرط الشيخان ولم يخرجاه ٢/ ٤٤٤.

(٤) سورة الشورى الآية: ٢٧.

يقول ابن عاشور: " عن خباب بن الأرت ﷺ (فينا نزلت هذه الآية، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني النضير، وبني قريظة، وبني قينقاع فتمنيناها فنزلت) وهذا مما حمل قوما على ظن هذه الآية مدنية، وهذا وإن صح عن خباب فهو تأويل منه، لأن الآية مكية، وخباب أنصاري، فلعله سمع تمثيل بعضهم لبعض بهذه الآية، ولم يكن سمعها من قبل.

وروي البيهقي عن حيوة بن شريح بن صفوان **أنه سمع عمرو بن حريث، وغيره: (إنما نزلت هذه الآية في أهل الصفة:** ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ **لأنهم قالوا: لو أن لنا. فتمنوا الدنيا** ") [1].

" وهذا خبر ضعيف " [2].

ثالثاً : أن قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾[3] لم يرد فيه نص يدل على أن الآية مدنية، ولعل ما حمل من قال بمدنيتها على هذا القول أنها تدعو إلى الانتصار في حال التعرض للبغي، وقد أمر الرسول ﷺ والمؤمنون في مكة بالصبر على أذى المشركين في أكثر من آية، ولم يؤمروا بالانتصار والجهاد إلا في المدينة.

ويمكن أن يجاب على هذا القول أن مقتضى الآية إباحة الانتصار لا الأمر به، وقد جاء بعدها قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[4].

الخلاصة:

من خلال عرض هذه الأقوال ومناقشتها يتأكد قول الجمهور بأن سورة الشورى كلها مكية.

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي – التاسع والثلاثون من شعب الإيمان، باب في الزهد وقصر الأمل، فصل فيما يقول العاطس في جواب التشميت، حيث رقم: ٩٩٢٢.

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ٩٣.

(٣) سورة الشورى الآية: ٣٩.

(٤) سورة الشورى الآية: ٤٠

المطلب الثاني
دلالات مكية سورة الشورى

اتصفت سورة الشورى مثل غيرها من السور المكية بسمات العهد المكي، إلا أن ما يلفت النظر في سورة الشورى هو مسماها الذي يشير إلى ركيزة من ركائز الحكم الإسلامي وهو ما لم يكن متوفرا في العهد المكي، مما يبعث على التساؤل عن دلالات وجود سورة بهذه التسمية في العهد المكي.

وللإجابة عن هذا السؤال نعرض المسألتين التاليتين: -

المسألة الأولى: السمات الموضوعية للقرآن في العهد المكي.

يمتاز القرآن المكي في موضوعاته بعدة مميزات منها [(١)]: -

١) الاهتمام ببناء العقيدة الصحيحة من خلال مواجهة العقائد والتصورات الباطلة، وتفصيل أركان العقيدة الأساسية التي تقوم على الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

٢) التركيز على ربط العقيدة بالعمل الصالح لبيان أهمية أن تظهر آثار هذه العقيدة في السلوك من خلال إفراد العبد الله ﷻ بالعبادة، وإخلاص التوجه إليه.

٣) حض الرسول ﷺ وأصحابه على ضرورة الصبر، والإعراض في مواجهة تسفيه المشركين وبطشهم، وتحمل أذاهم.

٤) تثبيت الرسول ﷺ ومن معه في مواجهة المشركين من خلال قص قصص الأنبياء مع أقوامهم، وكيف كانت العاقبة للنبي ﷺ وأتباعه.

٥) وضع اللبنات الأولى لبناء الفرد الصالح لا في عقيدته وعبادته فحسب، بل في بنائه الأخلاقي، وتعامله مع الآخرين من حوله، وسعيه في الدنيا وطلب الرزق.

٦) التركيز على أهمية انبثاق التشريع المنظم لحياة الفرد عن تشريع إلهي ومن ثم أوجزت بعضا من الأحكام دون الخوض في التفاصيل.

---

(١) ينظر: مقدمة في نص الخطاب القرآني بين العهدين المكي والمدني: د/ السيد عبد المقصود جعفر.

المسألة الثانية: دلالات نزول سورة الشورى في العهد المكي.

يدل نزول سورة الشورى في العهد المكي على عدة دلالات منها: -

الدلالة الأولى
ارتباط قضية الشورى بقضية العقيدة

سعى القرآن في العهد المكي على ترسيخ مبدأ سيادة الله تعالى المطلقة للكون، فالله هو خالقه، ومالكه، والمتصرف فيه.

والإنسان مخلوق لله، مستخلف في عمارة الكون، ليعمره وفق منهج الله تعالى، يرتهن بأمره في إمارته وسلطته، وسعيه، ومعاشه، وكل شئون حياته.

وقد اقتضت هذه الخلافة من الله تعالى أن تكون للإنسان سلطة، وإرادة، وحرية تمكنه من النهوض بتكاليف العمران، مع ارتهانه بأمر الله ﷻ، وهذا يعني أن يبقى الإنسان في المنطقة الوسطى ليس بالكائن المجبر المسير المهمش ولا بسيد الكون المطلق الحرية [1]، **وقد ترتب على ذلك أمرين: -**

أولاً: عدم ترك المجال للإنسان لينفرد برأيه، فالإنفراد بالرأي يؤول بالمرء إلى الاستبداد، والطغيان، وهذه سنة عامة، قال تعالى﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[2]فرأي بمعنى علم تنصب مفعولين أولهما الضمير وهو يعود على النفس [3] فعل (استغنى) قدره بعض مفسرين الآية بالاستغناء المادي، ويمكن أن يكون المعنى أعم، فيقال: إن هذا الإنسان يطغى، أي يستبد ويتجاوز الحدود[4] إن رأى نفسه مستغنيا بماله أو بكثرة من يغشاه من الناس، أو بعلمه، أو رأيه.

فالاعتداد بالرأي والعجب به يدفع المرء لتجاوز الحدود، والبطر، وفساد الحال، وربما إلى تقديس الذات، وتعظيمها وادعاء الأولوهية، كما قال فرعون لقومه ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ

---

(١) ينظر رسائل الإصلاح (٨) الشورى والديمقراطية، د. محمد عمارة ص١٠٤.

(٢) سورة العلق الآيتان: ٦، ٧.

(٣) تفسير البيضاوي ٩/ ٥٢٨ بتصرف.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٢

﴿ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [1] أي لا أمكنكم من رأي غير رأيي [2] فكان أن ادعى الأولوهية قائلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [3].

ولذا كان تشريع الشورى ليظل المرء في المنطقة التي خلقه الله من أجلها، إنسان مستخلف يخطئ ويصيب، يحتاج إلى الاسترشاد برأي غيره، ليقوم اعوجاج فكره، وضعف رأيه، أو ليدعم قراره، مما يقيه من الانزلاق إلى منطقة الخطر التي تخرجه من دائرة العبودية والخضوع لله تعالى.

الثاني: عدم فتح الباب للإنسان على مصرعه ليشاور ويقرر، فهناك مجال مغلق أمام الرأي والشورى، وهي مجال التشريع والوحي، فهذا ينقاد له المرء خاضعا مستسلما لسيده، وخالقه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ ﴾ [4].

أما ما سكت عنه التشريع، ومالم يتعرض له الوحي فهو مفتوح أمام الشورى ليقرر الناس ما يرونه من أمور وأحكام وآليات تنفعهم وتصلح معاشهم، ولذا تطرقت السورة إلى حقيقة الوحي والرسالة في مقدمتها وخاتمتها تأكيدا على انبثاق الشورى عنهما.

يقول سيد قطب: " هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية، ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة " [5].

الدلالة الثانية
الشورى دعامة من دعائم المجتمع المسلم

لم يكن للمسلمين في مكة المكرمة قبل الهجرة دولة مستقلة حتى يؤسسوا نظاما سياسيا ينظم شئونهم، ويحمي ضعفهم، ويسهل أمور معاشهم، لأنهم كانوا في مكة أقلية وسط أعداء يكرهون وجودهم ويؤذونهم ويتمنون استئصالهم، فلما هاجروا إلى المدينة أقاموا دولتهم، ومع ذلك وجدنا القرآن الكريم يتحدث عن الشورى التي هي مقوم

(١) سورة غافر الآية: ٢٩.
(٢)حاشية الشهاب على البيضاوي ٨/ ٢٥٩.
(٣) سورة القصص الآية: ٣٨.
(٤) سورة الأحزاب الآية: ٣٦.
(٥) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/ ٣١٣٦.

من مقومات الحكم الإسلامي، ولبنة في نظامه السياسي في سورة مكية، بل ويفرد لها سورة بأكملها.

وهو أمر يعطي دلالتين بارتين هما:

الدلالة الأولى: أن الشورى ليست قاصرة على محيط الدولة، وشئون الحكم، بل هي طابع للحياة الإسلامية بأسرها وكل ميادين الحياة الإنسانية العام منها والخاص سواء الأسرة، أو المجتمع، أو الدولة، أو الاجتماع الإنساني الكبير ونظامه الدولي، وعلاقته الدولية.

الدلالة الثانية: إن الدولة ليست إلا انعكاسا للمجتمع بخصائصه ومقوماته، ولذا لابد للمجتمع أن يعتاد الشورى، ويطبقها في كل مناحي الحياة، حتى يمكن اعتمادها كمقوم للدولة بعد إنشائها.

هذا المفهوم المستنبط من الحديث عن الشورى في سورة مكية تنطق به صراحة آيات قرآنية، فيقول الله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (١).

كما أن أول حديث عن الشورى في القرآن الكريم بالنظر في ترتيبه الكتابي جاء في سورة البقرة من خلال الحديث عن نظام الأسرة في شأن يعتقده الكثيرون صغيرا، وهو فطام الصغير، يقول الله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ (٢) وهي تعطي دلالة على الاهتمام بالشورى، فإن كان القرآن الكريم حض عليها في الأمر الفردي الأقل شأنا فما بالنا بالأمر العام الأعلى شأنا.

كما يعطي دلالة على أن الشورى قيمة لها آلياتها ومراحلها التي لابد أن يعتادها الناس في بيوتهم، حتى تغلب على الحياة العامة قبل أن تصيح سمة للدولة المسلمة.

يقول د / توفيق الشاوي:

" إن من خصائص شريعتنا أن نظام الحكم أو النظام السياسي فيها ليس إلا جزء وفرعا من فروع النظام الاجتماعي الذي هو الأصل والأساس، وأن الإسلام فرض

(١) سورة الشورى الآية: ٣٨.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٣٣.

الشورى كقاعدة للمجتمع، وأساس لجميع نظمه الاجتماعية، والمالية، والاقتصادية، وليس مقصورا على الناحية السياسية [1]

والخلاصة:

أن وجود سورة باسم الشورى في العهد المكي يعطي مفهوما واسعا لقضية الشورى يتجاوز ما يعلق بأذهان الناس من ارتباط الشورى بمجال الحكم السياسي.

كما أنه يربط بين صلاح العقيدة وتنفيذ الشورى في أرض الواقع بعلاقة طردية تلازمية، فكلما قويت العقيدة كلما ازداد تطبيق الشورى، والرضا بنتائجها.

(١) فقه الشورى والاستشارة: د/ توفيق الشاوي ص ٦٤.

المبحث الثالث
مناسبة السورة لما قبلها
نزولا وجمعا في المصحف

سورة الشورى هي السورة التاسعة والستون في نزول القرآن الكريم، نزلت بعد سورة الكهف، وقبل سورة إبراهيم.

وهي السورة الثانية والأربعون في المصحف تلي سورة فصلت، وتسبق سورة الزخرف.

وحتى يتم فهم السورة لابد من تنزيلها في الفهم على ما قبلها في التنزيل، إذا أن السور يفهم بعضها من بعض، فالمكي بعضه مع بعض، والمدني بعضه مع بعض، حتى وإن تجاورت سورتان في الترتيب واختلفتا في المكية والمدنية، فإن فهمهما متلازم.

يقول الشاطبي: المدني من السور ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه على بعض، والمدني بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل، وإلا لم يصح، والدليل على أن معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي، كما أن المتأخر من كل واحد منهما مبني على متقدمه الاستقراء، وذلك إنما يكون ببيان مجمل، أو تخصيص عموم، أو تقييد مطلق، أو تفصيل ما لم يفصل، أو تكميل ما لم يظهر تكميله [1]

ولذا أتعرض لمناسبات سورة الشورى لما قبلها نزولا، وترتيبا في المصحف من خلال المطلبين التاليين.

المطلب الأول
مناسبة السورة لما قبلها نزولا

مناسبة سورة الشورى لسورة الكهف:

تحدثت سورة الكهف عن الفتن التي يمكن أن يتعرض لها الإنسان سواء **في دينه،** قال تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ [2].

---

(١) الموافقات للشاطبي ٤٠٦/١.

(٢) سورة الكهف الآية: ٤.

وقال ﷻ: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ (١).

أو في ماله، قال ﷻ: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (٢).

أو في داخل أسرته ومجتمعه، قال ﷻ: ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ (٣)

أو من قبل حكامه ومرؤسيه، يقول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (٤) وما قصة أصحاب الكهف ببعيدة عن فتنة الحكام لشعوبهم.

قبل أن تظهر نموذجا للحاكم الصالح الذي تمثل في ذي القرنين ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ (٥).

وقد وضعت السورة منذ بدايتها إلى خاتمتها منهجا واضحا للنجاة من هذه الفتن بشتى صورها، تمثل في اللجوء إلى القرآن الكريم، والتأسي برسوله الكريم ﷺ الذي تلقى الوحي ووعاه.

فقال تعالى في أول السورة: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ (٦).

وقال في وسطها: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ (٧).

قبل أن تختم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٨).

---

(١) سورة الكهف الآية: ١٤.
(٢) سورة الكف الآية: ٤٦.
(٣) سورة الكهف الآية: ٨٠.
(٤) سورة الكهف الآية: ٧٩.
(٥) سورة الكهف الآية: ٩٥.
(٦) سورة الكهف الآية: ١.
(٧) سورة الكهف الآية: ٢٧.
(٨) سورة الكهف الآية: ١١٠.

ولما كان هذا التأكيد المستمر على اللجوء للقرآن والسنة يدفع إلى سؤال عما عساه أن يفعل المرء إذا لم يجد نصا من كتاب أو سنة حيال قضية أو مسألة تعرض للمسلمين ؟

جاءت سورة الشورى لتجيب عن ذلك في أمرين [1]: -

١- التأكيد على أحقية الوحي وأهمية أن يكون المرجع الرئيسي في حياة المسلمين.

٢- أن الأمور الخلافية والمستجدة ما لم يكن فيها نص كتاب أو سنة فمرجعها إلى الشورى.

(١) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني للألوسي ١٣/ ٤٦.

المطلب الثاني
مناسبة السورة لما قبلها في المصحف
(سورة فصلت)

تتصل سورة الشورى وتلتقي بسورة فصلت في أكثر من معنى على النحو التالي: كشفت سورة فصلت في ختامها عن بعض طبع الإنسان في قوله تعالى:﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[1] فأبرزت رده العملي بالإعراض والتكبر عند النعمة، والذل والاستكانة عند الشدة، بما يوحي بالتناقض، والتبدل وعدم الثبات.

ثم أكدت سورة الشورى على هذا المعنى في قوله ﷻ: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾[2] فأبرزت رده النفسي المتمثل بالفرح الشديد عند النعمة، والنكران والجحود لفضل الله ﷻ عند المصيبة.

١- وعد الله ﷻ بالكشف عن آياته، ودلائل قدرته، وعجائب خلقه للناس، فقال أ في ختام سورة فصلت: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[3].

هذه الدلائل تتكشف تارة في الكون الفسيح، والأفق الواسع في ملكوت السموات والأرض، والليل والنهار، الجبال والأنهار،... وغير ذلك.

وتنكشف تارة في النفس البشرية، في تكوينها وخلقتها الجدية، ووظائف الجسم، وأمراضه، وغذائه، وأسرار عمله وحركته،.... وغير ذلك.

أو في طبائعها النفسية، وغرائزها، ومحفزاتها، ومثبطاتها.

أو في تفاعلها الاجتماعي مع الغير، وما جبلت عليه من عطاء أو شح، تعاون أو أنانية،.... حيث جعل الله تبارك وتعالى للنفس قوانين، ونواميس ثابتة لا تتخلف ولا تتبدل، تقود إلى نجاحها، وصلاحها سواء في محيطها الشخصي، أو

---

(١) سورة فصلت الآية: ٥١.
(٢) سورة الشورى الآية: ٤٨.
(٣) سورة فصلت الآية: ٥٣.

الاجتماعي،... وذلك حتى يظهر للخلق جميعا صدق ما أنزله الله تعالى في كتابه، وأوحاه إلى رسوله غ من تدبيره للكون وفق مراده.

وقد قدمت سورة الشورى نموذجا لآيات الله في المجتمعات، من خلال التطرق لسنن الله الاجتماعية، فالاختلاف والتنوع ثراء، والفرقة والتشرذم دمار، وصلاح العقيدة ضرورة لصلاح المجتمع.

فكأن سورة الشورى تكشف عما وعد الله ﷻ به في سورة فصلت.

٢- اختتمت سورة فصلت بقوله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ (١)، واختتمت سورة الشورى بقوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ (٢)، وكلتا الخاتمتين مرتبطتان:

فكونه سبحانه بكل شيء محيط يدل على سعة علمه بكل شيء، واستئصاله المحاط به يحتم رجوع الأمور إليه ليحكم فيها وفق علمه السابق بها، فيظهر المصيب من المخطئ، والضال من المهتد، ويجازي كلا بعمله.

(١) سورة فصلت الآية: ٥٤.

(٢) سورة الشورى الآية: ٥٣.

المبحث الرابع
افتتاحية السورة وخاتمتها

من الأمور المعينة على فهم السورة، وتبين مقصدها وموضوعها النظر في افتتاحية السورة وخاتمتها.

يقول السيوطي: من الابتداء الحسن نوع يسمى براعة الاستهلال، وهو: أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله [(١)].

ويقول عن الخواتم: " هي أيضا مثل الفواتح في الحسن، لأنها أخر ما يقرع الأسماع، فلما جاءت متضمنة للمعاني البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى لا يبقى معه للنفوس شوق إلى ما يذكر بعد، لأنها بين أدعية، ووصايا، وفرائض، وتحميد، وتهليل، ومواعظ، ووعد ووعيد... إلى غير ذلك " [(٢)].

ففاتحة السورة تمهد للموضوع الذي سيقال في السورة، **والخاتمة تنهيه** وتقطع تعلق النفوس به، بحسن واقتدار يتمثل في أشكال متعددة.

ولذا يحسن بالباحث في موضوع سورة أن ينظر في فاتحة السورة، وخاتمتها، وأن يوجد العلاقة بينهما.

يقول الإمام الشاطبي: إن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض، لأنها قضية واحدة نازله في شيء واحد فلا محيص للمتفهم من رد أخر الكلام على أوله، وأوله على أخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف [(٣)].

** افتتاحية سورة الشورى وخاتمتها:

افتتحت سورة الشورى بقوله ﷻ: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [(٤)]

---

(١) الإتقان للسيوطي ٢/٢١١.

(٢) الإتقان للسيوطي ٢/٢١٣.

(٣) الموافقات للشاطبي ٣/٤١٣.

(٤) سورة الشورى الآيات من ١: ٤.

فالآيات تركز في افتتاحيتها على قضية الوحي فتبرز نقطتين أساسيتين:

١) وحدة مصدر الوحي، وأنه من لدن عزيز حكيم.

٢) التماثل في وحي الله تعالى لأنبيائه ورسله.

ثم تأتي خاتمة السورة لتعيد الحديث عن قضية الوحي بشكل آخر في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾[1].

فيضيف لقضية الوحي نقاطا أخرى:

١- تنوع كيفيات الوحي، وتعدد صوره.

٢- بركة وخيرية الوحي الإلهي، فهو سبب للحياة وروح لها، هذه الروح تدب في الأفراد، وتدب في الأسر، وتدب في المجتمعات، فتجعلها حية بحياة كريمة، وهو كذلك نور وهداية.

ثم تختتم السورة بحكمة موجزة في قوله أ :﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ تؤكد على أهمية الالتزام بالوحي، فإذا كانت نهاية الأمور إليهﷻ فلابد لبدايتها أن تنطلق من وحيه وتشريعاته، لأن الجزاء والحساب سيكون وفق ما جاءت به، وهذه الحقيقة التي أكدت عليها الفاتحة والخاتمة تلتقي مع اسم السورة، فالشورى أمر من الأمور التي ينبغي أن ينطلق فيها وفق الأوامر الإلهية، فلا يسمح لها أن تتجاوز الوحي والتشريع الإلهي، كما ينبغي أن يعاد بعد الفراغ من الشورى إلى الوحي للتأكد من أنه لا تعارض بين ما انتهت إليه الشورى، وبين ما جاء به الوحي.

---

(١) سورة الشورى الآيات من: ٥١: ٥٣.

المبحث الخامس
الموضوع العام للسورة

في ضوء المعلومات التي تم عرضها سابقا عن سورة الشورى – دلالة الاسم، ومكية السورة، ومناسبتها، مع السور السابقة عليها سواء في ترتيب النزول، أو المصحف مع النظر والتدقيق في فاتحة السورة وخاتمتها يمكن القول أن **سورة الشورى تتناول عدة أمور:-**

١) أمرا مرتبطا بصلاح العقيدة سواء كان سببا منشأ لهذا الصلاح، أو ثمرة مرجوة منه، كما تدل مكية السورة بهذا الصلاح.
٢) أمرا جماعيا إذ أن الشورى لا تكون إلا بين عدد من الأفراد كما يدل مفهوم الاسم.
٣) تضمن سورة الشورى عاصماً من الفتن والموبقات التي تنزل بالمجتمع، ولضمها على آية وسنة إلهية تقوم عليها المجتمعات، كما تدل مناسبة السورة لسورة الكهف، وسورة فصلت.

وبناء على هذه المقدمات الثلاث الرئيسية يمكن القول أن السورة تدور حول فكرة واحدة تربط بين الشورى والعقيدة والوحدة المجتمعية، وقد رأيت أن أتكلم عن سورة الشورى تحت موضوع "مقومات نجاح الشورى في توحيد المجتمع"

الفصل الثاني

تفسير سورة الشورى

المبحث الأول
مقدمات ضرورية حول الشورى

يقول الله ﷻ: ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ ﴾ (١)

المطلب الأول
الدراسة التحليلية

﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ﴾ طائفة من الحروف المقطعة، ابتدأت بها هذه السورة، كما ابتدأت بها سور أخرى، وهي حروف استأثر الله تعالى بعلم معناها.

وقيل إنما جيء بها زيادة في التحدي للمشركين حيث نزل القرآن الكريم بحروف من جنس حروفهم التي يتكلمون بها، ومع ذلك عجزوا عن معارضة القرآن والإتيان بمثله، مما يدل على أن القرآن الكريم كلام منزل من الله تعالى.

يقول السيوطي: " وقيل إن هذه الحروف ذكرت لتدل على أن القرآن مؤلف من الحروف التي هي **أ ب ت ث**، فجاء بعضها مقطعا، وجاء تمامها مؤلفا، ليدلل للذين نزل القرآن بلغتهم أنه بالحروف التي يعرفونها، فيكون ذلك تقريعا لهم، ودلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله، بعد أن يعلموا أنه منزل بالحروف التي يعرفونها ويبنون كلامهم منها " (٢).

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الكاف اسم بمعنى مثل (٣) في محل نصب مفعول يوحى، وذلك اسم إشارة.

---

(١) سورة الشورى الآيات من ١ : ٤.
(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ١٤.
(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٢١٨، روح المعاني للألوسي ٢٥/ ١٠.

والمعنى: يوحي الله إليك بمثل هذا.

والمشار إليه الإيحاء المأخوذ من الفعل ﴿ يُوحِيٓ ﴾، والمعنى: يوحي ﴿إِلَيْكَ ﴾ مثل هذا الوحي الذي تضمنته هذه السورة.

﴿ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ عطف على قوله: ﴿إِلَيْكَ ﴾، لبيان مماثلة وحيه ﷻ الذي يوحيه لرسوله ﷺ للوحي الذي نزل على الرسل من قبله.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[1].

والمجمل أن ما في هذه السورة من الوحي يوجهه الله تعالى إليك وإلى الذين من قبلك.

ويفهم من هذا أن ما في مضمون هذه السورة موافق لما في تضاعيف الكتب المنزلة على سائر الرسل المتقدمين في الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق.

وفائدة هذا الأسلوب من الافتتاح بالكاف، وتقديم المفعول التنويه بفخامة شأن السورة، وعظم معانيها، بعد التنويه بإعجازها الذي أوحت به الحروف المقطعة، وتشويق القارئين إلى معرفة مضمونها.

﴿ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ تصريح بفاعل الإيحاء، وهو الله، مع وصفه بالعزة، والحكمة.

﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ هو القادر الذي لا يغلب، فإذا أراد أمرا أنفذه، ولم يصده أحد أو يعجزه شيء [2].

---

(١) سورة النساء الآية: ١٦٣.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٣/ ٧٤، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ١٣١، التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥/ ٢٧.

﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ هو الحاكم الذي لا يجهل شيئا، والحكيم في أفعاله فلا يتطرق إليها فساد أو خلل، بل يضع الأمور في موضعها باقتدار وإتقان [١].

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ جملة مقررة للوصفين السابقين، لأن كل من كان ما في السموات وما في الأرض ملكا له، تتحقق له العزة لقوة ملكوته، وتتحقق له الحكمة التي تقتضي خلق ما في السموات والأرض، وإتقان ذلك النظام الذي تسير به المخلوقات، فملكيته سبحانه لكل ما في السموات والأرض سبب لعزته، وغلبة أمره، ودليل على غلبة أفعاله، ودقيق صنعه.

﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ﴾ المتعالي بذاته عن الأشباه والأنداد [٢]، فالعلو هو السمو في الكمال، فيسمو في صفاته، وأفعاله عن سفاسف الأمور.

﴿ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الذي يستحقر بالنسبة إليه كل ما سواه [٣]

(١) مفاتيح الغيب ٣/ ٧٤، القرطبي ١/ ٢٨٨.
(٢) تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٢/ ٥٨٠، وينظر تفسير الطبري ٣/ ١٤.
(٣) شرح أسماء الله الحسنى للرازي ص ٢٥٢.

الدراسة الموضوعية

بدأت سورة الشورى بالتأكيد على عدة أمور تعتبر بمثابة المقدمات لقضية الشورى

١) **الشورى تشريع إلهي** يجب العمل بها لأن الله تعالى أخبر أنها شرعت بوحي منه ﷻ، حيث دلت الآية القرآنية الثالثة على وحي الله تعالى لرسوله غ . **ومضمون هذه السورة**، وموضوعها الشورى، فدل هذا على أن الأمر بالشورى أمر إلهي.

٢) **لا تعارض بين الشورى وبين سيادة الله تعالى للكون**– كما ذكرنا سابقا– لأن الله تعالى وهو الغالب على مراده يفتح المجال للإنسان للشورى دون أن يعني فتح الباب للتشريع، والتحاكم بغير ما أنزل الله.

٣) **أن تشريعها دليل على حكمة الله تعالى**، ودقة تشريعه، لما لها من آثار ومنافع، فترك بعض الأمور بلا نص، أو وحي ليست عن عجز أو نقص في التشريع، أو نقص في العلم بما قد يجد في حياة الناس، أو فقر في الإمكانيات والآليات، ولذا وصف سبحانه نفسه بالعلي العظيم.

المبحث الثاني

الاختلاف ظاهرة اجتماعية دعامة للشورى

المطلب الأول
الاختلاف سنة إلهية عامة

يقـول الله تعـالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾ (١)

الدراسة التحليلية

شرعت هذه الآيات في بسط مظاهر عظمة الله تعالى، والتمهيد لدعامة من دعامات الشورى أوجدها الله تعالى في الكون، وفي طبائع الخلق كسنة إلهية، ألا وهي سنة الاختلاف فيقول الله تعالى: ﴿ تَكَادُ ﴾ جملة مستقلة سيقت لتقرير مفهوم العظمة الذي دلت عليه الآية التي سبقتها ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (٢).

و(كاد) من أفعال المقاربة التي تدل على قرب وقوع الفعل مع عدم وقوعه (٣).

﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ اسم كاد، وخبرها ﴿ يَتَفَطَّرۡنَ ﴾ بمعنى يتشققن، وقوله ﷻ: ﴿ مِن فَوۡقِهِنَّ ﴾ للدلالة على الجهة التي تبتدئ بالتفطر والتشقق، ومبالغة في الدلالة على شدة هذا التشقق الذي يوشك أن يصيبها، لأنه إذا انشق أعلاهن كان انشقاق ما دونه أولى، وعظم شناعة تلك الكلمة، أو لأن فوقهن تشمل تحتهن من باب الأولى" ذلك أن تلك الكلمة الشنعاء الواقعة في الأرض حين أثرت من جهة الفوق، فلأن تؤثر من جهة التحت أولى) (٤)

ويرجع سبب هذا التشقق الذي أوشك أن يطال السموات إلى عدة أمور: -

١) عظمة الله وجلاله فوقهن (٥)

(١) سورة الشورى الآية: ٥.
(٢) سورة الشورى الآية: ٤.
(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٢١٨، ٢١٩.
(٤) روح المعاني ٢٥/ ١٢.
(٥) روح المعاني للألوسي، ٢٥/ ١١

٢) كثرة وجود الملائكة، ويدل عليه قوله ﷺ: **(إن السماء أطت وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله)**[١].

٣) أن أعظم الآيات وأدلها على العظمة كالعرش والكرسي فوقها.

ويحتمل أن يكون سبب التفطر ما ذكره الله تعالى في سورة مريم ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ [٢] أي بسبب إدعاء الشريك والولد له [٣].

وعلى هذا السبب يكون التعبير بـ﴿ فَوْقِهِنَّ ﴾بدلا من "**تحتهن**" – المناسبة لوقوع تلك الكلمة في الأرض– للدلالة على عظم شناعة الكلمة التي قالوها حتى أثرت في جهة الفوق، فلأن تؤثر على جهة التحت أولى [٤].

والسموات على عظم الأسباب التي كادت تؤدي بها إلى التشقق لم تتشقق لوجود سبب أعظم وهو الله العلي العظيم الذي لا تعلو إرادته إرادة، كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ [٥].

ومن هنا قيل أن هذه الآية مقررة للآية السابقة التي دلت على عظمته ﷻ.

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ جملة ثانية مقررة ومؤكدة لعظمته ﷻ، فالملائكة من شدة عظمته ﷻ تنزهه ﷻ عما لا يليق به، وتستغفر لغيرها من أهل الأرض للخوف عليهم من سطوت جبروته جلا وعلا [٦].

و**التسبيح** التنزيه عن النقائص، **والحمد** الثناء بالفضائل.

---

(١) سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب الحزن و البكاء ٤/ ٤٦٤، حديث رقم: ٤١٨، وقال الترمذي ٦/ ٦٠١ حديث حسن.

* أطت: الأطط: صوت الرحل والإبل من ثقل أحمالها، و المراد أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت. (لسان العرب لابن منظور، مادة أطط، الفائق في غريب الحديث للعلامة جار الله الزمخشري ١/ ٤٩، طبع الحلبي).

(٢) سورة مريم الآيات: ٨٨: ٩٠.

(٣) روح المعاني٢٥/ ١١.

(٤) روح المعاني ٢٥/ ١٢.

(٥) سورة فاطر الآية: ٤١.

(٦) روح المعاني٢٥/ ١٣.

والباء في ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ للملابسة، أي يسبحون الله تسبيحا مصاحبا للحمد، فينفون عنه النقائص، ويثبتون له المحامد والنعم، ويثنون عليه بها.

﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴾ بالسعي فيما يستدعي المغفرة لهم من الشفاعة والإلهام، والدفع للطاعات، ودفع العوائق، واستدعاء تأخير العقوبة طمعا في إيمان الكافر، وتوبة الفاسق، وهذا يعم المؤمن والكافر.

وقيل أن الآية تشمل المؤمن فقط، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [1]

﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ألا حرف تنبيه يدل على تحقيق ما بعده [2]

الدراسة الموضوعية

من مظاهر عظمة الله التي توحي بها الآية اختلاف مخلوقاته وتنوعها، فهناك مخلوقات مادية خالصة كالسموات والأرض، وهناك مخلوقات روحانية خالصة وهي الملائكة، وهناك مخلوقات تجمع بين المادة والروح ويمثلها كل بني آدم.

وعلى الرغم من اختلاف الطبائع والخصائص فيما بين هذه المخلوقات نجد التكامل، فالسموات تحمل الملائكة حتى تكاد أن تئط، والأرض يحيا عليها الإنسان، والملائكة التي تمجد الله تعالى وتعظمه، ولا تعصيه أبدا، تدعو بالخير لمن في الأرض، وتسأل لهم الهداية والمغفرة.

فهذا الاختلاف الذي أودعه الله تعالى في الحياة ليس اختلاف تناقض، واضطراب، بل اختلاف تنوع وتلون يثري الحياة، ويساعد على تجدد النشاط، وعدم تسرب الملل إلى النفوس، وتنوع الإنتاج، والأفكار، وتنمية قيمة التعاون والتآزر.

والاختلاف التكاملي النافع دعامة هامة من دعائم الشورى، ومقوم رئيسي لها إذ ينتقل المرء إلى غيره ليأخذ خلاصة فكره الذي يعلم أن له طبيعة تفكيرية مختلفة فإما أن يدعم رأيا عنده، أو يفتح له أفقا جديدا لم يكن ليخطر بباله، أو يكمل له جوانب كانت خافية عنه، أو يخالفه تماما، ولولا الاختلاف والتنوع لما احتاج أحد لرأي الآخر.

---

(١) سورة غافر الآية: ٧.

(٢) الإتقان للسيوطي ١/ ٤٦٨.

المطلب الثاني
الاختلاف بين الناس
الأنواع – الأسباب – العلاج

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

الدراسة التحليلية

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أولياء جمع ولي، وأصله من الولي وهو الدنو والقرب.

والولاية تقع من الله لعباده، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾(٢)

يقول الخازن: ناصرهم ومعينهم، **وقيل:** مجيبهم ومتولي أمرهم، فلا يكلهم إلى غيره، وقيل: هو متولي هدايتهم (٣).

كما تكون الولاية من المؤمنين لربهم، قال تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾(٤) أما اتخاذ الأولياء من دون الله فيقع على نمطين:-

١- **اتخاذ غير الله تعالى من صنم أو شخص،** أو شيطان إلها ومعبودا يحبه، ويتقرب إليه، ويطلب منه النصرة، وهذا شأن المشركين.

٢- **اتخاذ غير الله معينا،** يحرص على محبته ومرضاته، وهذا سلوك قد يقع من بعض المؤمنين بدليل قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا

---

(١) سورة الشورى الآيات من ٦: ٩.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٥٧.
(٣) تفسير الخازن ١/ ٢٧٢.
(٤) سورة المائدة الآية: ٥٦.

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ﴾[1]،و ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾

والمعنى:

ومثل هؤلاء الذين يتولون غير الله، ويخالفون منهج الله، يرشد الله رسوله ﷺ إلى كيفية التعامل معهم، بقوله: ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾.

﴿ حَفِيظٌ ﴾ بمعنى حافظ، وهو الحارس الذي يجعل إليه نظر غيره، وحفظه وصونه عما يضره [2] وقد يقترن بالإجبار والإكراه [3] لأن الحفظ قد يحتاج معه إلى إكراه ذلك الغير من أجل مصلحته، ودفع ما يضره.

أما الحفظ في حق الله تعالى فكناية عن القدرة والقهر [4].

والآية كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [5].

ومعناها كما قال الإمام الألوسي: رقيب محيط بالأشياء علما، فلا يخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم، فالحفظ كناية عن المجازاة، ويجوز أن يكون الحفيظ بمعنى الحافظ أي الحاكم المتولي، أي: أنه سبحانه حافظ مسئول عن كل شيء " [6]

﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ الوكيل القائم بشأن من وكله [7].

والفرق بين الحفيظ، والوكيل: أن الوكيل يجعل له الحفظ من جانب صاحب الشأن، أما الحفيظ فيكون من جانبه، ومن جانب مواليه [8].

---

(١) سورة المائدة الآية: ٥٧.
(٢) التحرير والتنوير ٧/ ٤٢.
(٣) التحرير والتنوير ٧/ ١٤١.
(٤) التحرير والتنوير ٧/ ١٠٣.
(٥) سورة هود الآية: ٥٧.
(٦) روح المعاني للألوسي ٤/ ١٧٠.
(٧) التحرير والتنوير ٤/ ١٧٠.
(٨) التحرير والتنوير ٧/ ٤٢١.

والمعنى العام للآية: -

أن شأن هؤلاء المتخذين للأولياء من دون الله، موكل لله الرقيب مجازاتهم على أعمالهم، أما أنت يا محمد، فلست بحفيظ عليهم من قبل الله تعالى تجبرهم وتدفعهم إلى ما تراه من مصلحتهم، ولست مفوضا من قبلهم، تقوم بأمرهم، وتدبر مصالحهم، وفي معنى الآية قوله ﷻ في آخر السورة ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (١).

وقد قيل أن الآية منسوخة بالسيف، وليس كذلك، لأن السيف والجهاد لم يشرعا لإكراه الناس على الإيمان، وإنما شرعا لإزالة الحواجز التي تحول بين الناس وبين حرية الاختيار، ولصد البغي والعدوان.

ثم قال أ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾.

(ذلك) اسم إشارة، والمشار إليه قيل أنه يعود إلى الوحي المذكور في أول السورة، ويحتمل أن يكون عائدا على المعنى الذي أضافته الآية السابقة، أي وكما أوحينا إليك ألا تتسلط على مخالفيك، أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر به.

﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ تصرح هذه الآية بالشيء الذي أوحي به على النبي ﷺ، وتسميه قرآنا بمعنى المقروء، لتدل على أن من شأنه أن يقرأ لحسنه وفائدته.

﴿ عَرَبِيًّا ﴾ بيان لصفة القرآن، وهي صفة تدل على أن الوحي الذي أنزل على النبي ﷺ نزل بلغة من طبيعتها التشابك والتشابه، مما يجعل اختلاف الناس في فهمها أمر محتمل، ولا مرجع لرفع هذا الاختلاف إلا برده إلى من نزل عليه الوحي وأمر بالإنذار، وهو رسول الله ﷺ، ثم برده إلى فهم من نزل إليهم وخوطبوا به، وهم العرب.

﴿ لِتُنْذِرَ ﴾ هو الإخبار بمخيف في مدة تتسع للتحفظ من المخوف به، وهو يتعدى إلى مفعول، وهو الملقى إليه الخبر، ويتعدى إلى الشيء المنذر به بالباء تارة، وبنفسه تارة أخرى، فيقال أنذرته كذا.

والمفعول المنذر هنا هو أم القرى، أي أهلها.

﴿ أُمَّ الْقُرَى ﴾ خص أم القرى بالذكر مع عموم المنذرين لعدة أسباب:-

---

(١) سورة الشورى الآية: ٤٨.

١) **أن أهل أم القرى هم أهل مكة** المخاطبون بالقرآن ابتداء قبل بقية أمة الدعوة، فكانت أحوالهم مرعية لا محالة، وكان كثيرا من القرآن مقصود به خطابهم، وإصلاح أحوالهم، قال تعالى: ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴾ (١) (٢).

٢) **أن الأم تطلق على أصل الشيء**، ومكة هي أقدم القرى، وما القرى في بلاد العرب إلا بعدها فسماها العرب أم القرى، وكان العرب قبلها سكان خيام(٣).
ومن ثم فإن إنذار أم القرى خصوصا يقتضي أن الباقي تبع لها، فإذا نفع معها الإنذار، سهل إنذار الباقي، ولذا لما فتحت مكة أسلم كثير من العرب.

٣) **أن مكة أي أم القرى تقع في موقع استراتيجي** متوسط من جميع القارات الخمس، فهي مركز الأرض ووسطها، ومن ثم فإن إنذار أهلها ومن حولها يشمل جميع أهل الأرض.

وآثر التعبير عن مكة بلفظ أم القرى لما فيه من معنى الجمع والائتلاف بين القرى المختلفة في طبائع أهلها، وظروفها الجغرافية، والسكانية، والاقتصادية، كما تجمع الأم أولادها وتؤلف بينهم بالمحبة والمودة.

وكذلك مكة المكرمة توحد المسلمين في قبلتهم، وتجعل هدفهم ومبتغاهم واحدا.

﴿ وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ﴾ تكرار للإنذار مع الشيء المنذر منه، ولم يذكر مع المنذر في جملة واحدة، فيقال (ولتنذر أم القرى ومن حولها يوم الجمع) كما في قوله تعالى ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ ﴾ (٤) زيادة في الترهيب والتخويف، لأن المقام مقام حديث عن الاختلافات، وقد تخرج عن مسارها المحمود إذا ما اعتراها اتباع الهوى، وسوء الظن والحقد، مما يجر على الأمة كثير من الويلات، والتفرق، والتشرذم، فحسن تكرار الإنذار للترهيب من أسباب الاختلاف المذموم.

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٥٦.
(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ٣٦.
(٣) التحرير و التنوير ٢٥/ ٣٦١، والمفردات للراغب ص، وروح المعاني للألوسي ٢٥/ ١٣.
(٤) سورة مريم الآية: ٣٩.

- كما إن في إفراد المنذر به، والمنذر بالذكر تنويه بدلالة لفظهما، فالرسالة الإسلامية رسالة جامعة، لذا كان مكانها مكانا جامعا، كما أن اليوم الذي سيقع فيه الحساب والجزاء على هذه الرسالة النبوية هو يوم جامع.

ولا عجب أن تسعى رسالة جامعة في أولها وآخرها إلى الوحدة، ونبذ التفرق والاختلاف المذموم.

يقول الألوسي: " والآية تعد من باب الاحتباك فيثبت في إحدهما مالم يثبت في الآخر، فأثبت في الأول المنذر وحذف المنذر به، ليعم الإنذار أمور الدنيا والآخرة، ثم خصص في الثاني المنذر به، وعمم المنذر ليشمل الإنذار كل أحد " (١).

و ﴿ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ هو يوم القيامة سمي بهذا الاسم لأن الله تعالى يجمع فيه المتباعدين زمانا، فيجمع القرون والأجيال المتعاقبة منذ خلق آدم عليه السلام، قال ﷻ: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ (٢)، ويجمع بين المؤمنين والكفار، قال ﷻ: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾(٣)، ويجمع سبحانه أشلاء الجسد المتناثرة مع الروح، وفي إيثار التعبير بـ ﴿ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ عن أي اسم آخر من مسميات يوم القيامة ترهيب للمختلفين، لأن المخالف المتبع لهواه يأبى مواجهة مخالفه، ومناقشته، فناسب التذكير بيوم الجمع أمام الله الذي يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ﴾ تأكيد على وقوع يوم الجمع.

﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ دفع لما قد يتبادر إلى الأذهان من أن الجمع بين المؤمنين والكفار سيؤول إلى وحدة في المصير.

فالجمع للحساب، ثم يتفرقون بعد الحساب، فيستقر المؤمنون في الجنة، ويؤول مصير الكفار إلى النار التي تسمى بالسعير لالتهابها واستعارها.

(والفرق): الفصل بين أجزاء شيء متصل الأجزاء (٤).

---

(١) روح المعاني ٢٥/ ١٣.
(٢) سورة المرسلات الآية: ٣٨.
(٣) سورة سبا الآية: ٢٦.
(٤) التحرير والتنوير ١/ ٤٩٤.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ المشيئة عند المتكلمين كالإرادة سواء، وأصل المشيئة: إيجاد الشيء وإصابته، وإن استعمل عرفا في موضع الإرادة [١].

﴿ وَلَوْ ﴾ حرف امتناع لامتناع، والمراد به هنا امتناع جعل الناس أمة واحدة لامتناع تعلق المشيئة الإلهية بذلك.

والمراد بالجعل: التقدير والإيراد التكويني[٢] أي لو شاء الله لأوجدهم على هيئة لا يتأتى معها إلا القبول بدين واحد، وبها يكونون أمة واحدة، وقد يكون الجعل بمعنى التصيير، أي تحويل اختلافهم في الدين إلى الاتفاق على دين واحد.

والأمة: الجماعة العظيمة من الناس الذي يجمعها شيء واحد من عظائم الأمور كالدين واللغة، أو النسب، أو الموطن [٣].

وتدل الآية على انتفاء جعل الناس أمة واحدة في الدين لحكمة إلهية.

استطراد مهم

يمكن استخلاص الحكمة من عدم جعل الناس أمة واحدة متفقة في الدين من خلال جمع الآيات المتشابهات مع هذه الآية، إذ تكررت هذه الآية في القرآن الكريم أربع مرات.

- **الآية الأولى:** في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [٤].
- **الآية الثانية** في قوله ﷻ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٥].
- **والآية الثالثة** في قوله ﷻ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [٦].

---

(١) روح المعاني ١/ ١٧٦

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٧٠٩، روح المعاني ١/ ١٨٧.

(٣) التحرير والتنوير ١١/ ١٨٨.

(٤) سورة المائدة الآية: ٤٨.

(٥) سورة النحل الآية: ٩٣.

(٦) سورة هود الآية: ١١٨، ١١٩.

- **والآية الرابعة** في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ (١).

وفي كل مرة تذكر الآيات تعليلا مختلفا، وسببا جديدا لعدم جمع الناس على ملة واحدة، ولكن عند الجمع بين هذه الآيات يمكن الخروج بسبب واحد وهو وجود سنة إلهية تسير الأمور وفقها، وهي سنة الاختلاف.

ففي الآية الأولى: يذكر ﷻ أنه لم يجعل الإيمان جبريا، بل اختياريا، حتى يختار كل امرئ طريقه، ومن ثم فإن الاختلاف عائد على خلق الله ﷻ البشر إلى هيئة قابلة للاختلاف، مما يستتبعه الاختلاف في قبول الإيمان ورفضه، وهذا معنى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ أي يختبركم فيما آتاكم.

فالحكمة هي إظهار اختلاف ميول الناس، وعقولهم، وطاقاتهم، وتعدد اختياراتهم مع استمتاعهم بجو من الحرية.

وتنكر الآية الثانية أثرا من آثار حرية الاختيار، وما يتبعها من اختلاف وهو انقسام الناس بين ضال ومهتد.

وفي الآية الثالثة يقرر ﷻ أن هذا الاختلاف رحمة بقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

يقول الشيخ القرضاوي: الاختلاف في الفروع والجزئيات رحمة، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يبين أن الاختلاف واقع بمشيئة الله تعالى المرتبطة بحكمته ﷻ وهذا يدل على أنه أمر واقع ماله من دافع، لأن مشيئة الله الكونية تعلقت به، وما شاء الله كان.

فإن قال قائل: ولكن النص استثنى من المختلفين من رحمهم الله، فدل ذلك على أن الاختلاف ينافي الرحمة.

فالجواب أن هذا صحيح فيمن كان الاختلاف وصفا ثابتا لهم لا عرضا طارئا عليهم، وهذا لا يكون إلا في الاختلاف في العقائد والأصول، كاختلاف اليهود والنصارى، وأهل الملل والنحل بعضهم مع بعض، واختلاف الفرق داخل كل ملة منهم بحيث

---

(١) سورة الشورى الآية: ٨.

يكفر بعضهم بعضا، أما الاختلاف في الفروع ونحوها مما ليس فيه نص قاطع ملزم فلا مدخل له هنا " [1].

فهذه الآية تبرز نوعين من الاختلاف: -

أ- اختلاف في الفرعيات.

ب- اختلاف في الأصول والعقائد.

كما تعود الآية الرابعة في سورة الشورى على الآية الثانية، فتؤكد على أن اقتصار الخلاف على الفرعيات رحمة يهدي الله إليها من يشاء، فيقول ﷻ: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ أي يوفق الله من يشاء من المختلفين لجعل الاختلاف بينهم اختلافا ممدوحا، قاصرا على الفروع، بحيث يكون داخلا في رحمة الله.

إذ أن مفهوم الرحمة مفهوم واسع يطلق على إيصال النفع، ودفع الضرر، وتتدرج تحته أنواع كثيرة من الرحمة، فالإسلام، والقرآن رحمة، والرسول ﷺ رحمة، والاختلاف رحمة، ومن دخل في رحمة الله في الدنيا فهذا أدعى لأن تشمله رحمة الله في الآخرة.

﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أما المخالفون في العقيدة الذين ضلوا عن الطريق المستقيم فصاروا ظالمين لأنفسهم بالجنوح للاختلاف المذموم فقد حرموا من ولاية الله تعالى ونصره، ومن ثم فمآلهم التخبط والتردد.

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه وفي التعبير بـ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إشارة إلى أن الاختلاف المذموم ذو عواقب وخيمة تعود بالظلم على دعاته، ومروجيه، وعلى المجتمع الذي ينتشر فيه.

كما تدل الآية على أنه لا عاصم من الوقوع في براثن هذا الاختلاف إلا بموالاة الله ﷻ.

ولذا عممت الآية نفي وجود النصير والولي للظالمين مع أنهم اتخذوا لأنفسهم أولياء من صنم، أو أشخاص، أو طوائف، لكنهم لما لم يغنوا عنهم شيئا كالولي الحقيقي كانوا هم والعدم سواء.

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم: د.يوسف القرضاوي ٥٢.

وهذا ما قررته الآية التالية بقوله ﷻ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ أَمِ ﴾ منقطعة بمعنى بل، تفيد الإضراب والانتقال من معنى لآخر [1].

أي بل كانت لهم أولياء اتخذوها من تلقاء أنفسهم من دون سلطان أو دليل.

ومع الإخبار عن هذه الحقيقة يأتي الإنكار والتعليل [2] أما الإنكار فدل عليه الاستفهام.

فالمعنى " آتخذوا من دونه أولياء ؟ أي أتوا منكرا لما اتخذوا من دونه أولياء.

ووجه الإنكار وعلته يعود إلى أن الله هو الإله الحقيقي، فكان عليهم لما طلبوا أولياء أن يتولوه وحده.

يقول الرازي: " والفاء في قوله تعالى ﴿ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ جواب شرط مقدر، فكأنه قال: " إن أرادوا أولياء بحق فالله هو الولي الحق لا ولي سواه "، لأنه ﴿ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، فهو الحقيق بأن يتخذ وليا دون من لا يقدر على شيء سواه[3].

ومن أهم صور موالاة الله تعالى التي تدفع الاختلاف التحاكم إليه، فيقول ﷻ: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [4].

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ ﴾ الاختلاف أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله وقوله [5].

﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ نكره للتعميم، أي: أي شيء اختلفتم فيه:

---

(١) تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٨/ ٣٣٥.

(٢) يقول السيوطي: **" تأتي أم المنقطعة التي لا يفارقها الاضراب، ثم تارة تكون له مجردا، وتارة تضمن ذلك استفهاما إنكاريا – الإتقان ٤٢٧/١.**

(٣) مفاتح الغيب للرازي ١٤/ ٧.

(٤) سورة الشورى الآيات: ١٠: ١٢.

(٥) المفردات للراغب ص١٥٦.

- فإن كان ذلك الاختلاف في تكذيب وتصديق وإيمان، وكفر وغير ذلك، فالحكم فيه والمجازة عليه ليست إلا لله.
- وقيل في شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسوله ﷺ ولا تؤثر حكومته على حكومة غيره [1]، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [2].
- وقيل من شيء من تأويل آية، أو حكم، أو تشريع فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله تعالى، أو الظاهر من سنة رسوله ﷺ [3].

وتبين الآية العلة في كون الاحتكام إلى الله تعالى هو العلاج الأرجح لكل الاختلافات المذمومة بقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾، فالله هو الرب، الخالق، العليم بما يصلح عباده في كل زمان ومكان، ولذا فمنه أبدا في كل الأمور بالتوكل عليه والاستعانة به، وإليه انتهي بطلب المغفرة، وتجديد الإنابة مما عساي أن أخطأ في فهمه وتطبيقه.

وبهذا تكون الآية جمعت بين الحكم وعلته.

يقول أبو حيان: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في كيد أعداء الدين وإليه أرجع في كفاية شرهم "[4].

ويقول الرازي: "﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في دفع كيد الأعداء، وفي طلب كل خير ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ وإليه أرجع في كل المهمات [5].

ومن صفاته ﷻ التي تبرز أهمية الاحتكام إليه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾.

فقوله ﷻ: ﴿فَاطِرُ﴾خبر بعد خبر لقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، وهذه الكلمة تبرز آثرا من آثار قدرة الله تعالى في خلق السموات والأرض.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٥٠٩، ومفاتح الغيب ٢٧/ ٨.
(٢) سورة النساء الآية: ٥٩.
(٣) انظر البحر المحيط ٧/ ٥٠٩.
(٤) البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٥٠٩.
(٥) مفاتيح الغيب للرازي ١٤/ ٨.

فالفطر إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال [1].

﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ حال من فاطر، فإن خلق الإنسان والأنعام من أعجب أحوال الخلق، إذ خلقهم الله ﷻ على هيئة تختلف فيها الأفراد ذكورا وإناثا، ومع ذلك تتلاقى لتتبادل النفع.

﴿ أَزْوَٰجًا ﴾ جمع زوج، وهو الذي ينضم إلى فرد فيصير كلاهما زوجا للآخر، والمراد هنا الذكور والإناث من الناس، فللذكور أزواج من الإناث، وللإناث أزواج من الرجال.

﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ من نوعكم، وذلك كمال النعمة.

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾، وذكر أزواج الأنعام دون أزواج الوحش، لأن في الأنعام فائدة لحياة الإنسان، لأنها تعيش معه، ولا تنفر منه، وينتفع بألبانها، وأصوافها، ولحومها، ونسلها، وعملها من حمل وحرث، فجعلها أزواجا نعمة للإنسان [2].

﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ يكثركم، ويزد نسلكم.

﴿ فِيهِ ﴾ أي بسببه.

فالآية تتحدث عن مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى، إذ أوجد في الصنف الواحد من الإنسان، أو الحيوان نوعين مختلفين في الطبائع والخصائص والوظائف، ومع هذا الاختلاف يقع التلاقي والتكامل، ويتم النفع بزيادة النسل.

وفي مقابل هذا الاختلاف، والتنوع في خلق الله، فإن الله ﷻ لا يماثله ولا يقابله شيء في ذاته، أو صفاته، أو تدبيره، أو إنعامه، وإحسانه، وحكمه، وتشريعه، ولذا قال سبحانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، **وقد اختلف المفسرون في معنى الآية تبعا لاختلافهم في معنى الكاف.**

فقد ذهب فريق إلى أن الكاف زائدة للتوكيد.

لأن الكاف تأتي بمعنى مثل، فهي هنا من قبيل التأكيد اللفظي، واللفظ المرادف من غير جنسه [3].

---

(١) المفردات للراغب ص٣٨١

(٢) التحرير و التنوير ٢٥/ ٤٤

(٣) التحرير ٢٥/ ٤٦

وإنما جمع بين الكاف والمثل لتأكيد النفي، تنبيها على أنه لا يصح استعمال المثل والكاف فنفي بليس الأمرين جميعا [١] فالله ﷻ ليس له مثيل ولا شبيه.

وبهذا يكون قد نفى المماثلة والمشابهة عن الله تعالى.

أما الفريق الثاني فيرى أن الكاف بمعنى مثل.

فالمعنى ليس مثل مثله شبيه " فأثبت لذاته مثلا، ثم نفى عن ذلك المثل أن يكون له مماثل كناية عن نفي المماثلة لذات الله تعالى (أي بطريق لازم اللازم، لأنه إذا نفى المثل عن مثله فقد نفى المثل عنه من باب أولى [٢].

والآية بمثابة حكم بعدم وجود شبيه لله مع وجود تعليل ملازم مقتضاه إذا كان مثيله ليس له مثل، فكيف يكون لله مثل، وبهذا تكون الآية قد جمعت بين الحكم وعلته.

ويمكن أن يضاف للكاف فائدة أخرى – أن الآية لو اقتصرت على نفي المثل فقط، وكان الله (ليس مثله شيء) بدون كاف لكان ذلك نفيا للمثل المكافئ وهو المثل التام المماثلة فحسب، وإذا لدب إلى النفس دبيبة الوسوسة أن هناك رتبة لا تضارع رتبة الإلوهية، ولكنها تليها، وأن عسى أن تكون رتبة الملائكة، أو الأنبياء، أو شيء غير ذلك، فكان في وضع حرف الكاف إقصاء للعالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة، وما يدنو منها.

كأنه قيل: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلا لله تعالى، فضلا عن أن يكون مثلا له على الحقيقة [٣].

ومع تنزهه سبحانه عن أي مشابهة لمخلوقاته يتصف سبحانه بصفات الكمال والجلال، فيثبت لنفسه صفة السمع والبصر، الدالين على علمه بكل ما توقعه مخلوقاته من المسموعات والمبصرات، ووفق علمه بخلقه يصلحهم ويدبر شئونهم وأمورهم بما عنده من مفاتيح لكل الأمور.

يقول ﷻ: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

مقاليد: كلمة عربية مأخوذة من التقليد بمعنى الإلزام، ومنه تقليد القضاء،

---

(١) التحرير ٢٥/ ٤٦، والكشاف للزمخشري ٤/ ١٢٧.

(٢) النبأ العظيم د. عبد الله دراز ص١٢٩.

(٣) النبأ العظيم ص١٢٨.

وهو إلزامه النظر في أموره [١].

وقيل: وهو الأشهر أنها كلمة فارسية معربة معناها مفاتيح [٢].

ولما لم تكن هناك مفاتيح حقيقية قيل أن المقاليد استعارة بالكناية، حيث شبه أمور الكون بالخزائن المغلقة التي لا يعلم ما فيها من خير وشر، ثم حذف المشبه به، وأبقى لها ما هو من مرادفاته وهو المفاتيح [٣]. وتقديم الجار والمجرور (له) لإفادة الاختصاص.

والمعنى أنه ﷻ لا أحد غيره يتولى تدبير أمر السموات والأرض حفظا، وتصريفا، وإعطاء ومنعا، تقديرا للنعم والنقم، والغنى والفقر.

لأنه العليم بمفاتيح ومداخل كل الأمور، فبيده مفتاح الرزق، ومفتاح العلم، ومفتاح الأمن، ومفتاح التآلف، ومفتاح السلطة، والسلم الاجتماعي.... الخ، وكل منهما يمنحه الله تعالى لعباده بمقدار يتفاوت بين البسط والتقتير حسب مشيئته سبحانه، وكل ما يعطيه الله ﷻ لعباده يسمى رزقا.

إذ الرزق في مفهومه الواسع يشمل ما ينتفع به من مال، أو علم، أو جاه، أو سلطان، أو حسن الرأي والحكمة.

يقول الفيروز أبادي: " الرزق بالكسر ما ينتفع به، ويقال للعطاء المادي تارة دنيويا كان أو أخرويا، وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به.

يقال: أعطى السلطان رزق الحند، ورزقت علما، قال تعالى: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ [٤] أي من المال، والجاه، والعلم " [٥].

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عليم بالرزق الذي يصلح كل فرد، والقدر، والنوع.

الدراسة الموضوعية

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٠.

(٢) الإتقان للسيوطي ١/ ٤٣٦.

(٣) التحرير والتنوير ١٢/ ٤٩.

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٥٤.

(٥) بصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي ٣/ ٦٥، ٦٦.

بعد أن تحدثت الطائفة الثانية من الآيات عن الاختلاف كسنة إلهية في عموم خلق الله تعالى تؤدي إلى النفع والإثراء، ودعم قيمة الشورى، شرعت هذه الآيات في الحديث عن أنواع الاختلاف بين البشر بادئة بالاختلاف المذموم للحذر منه، فجعلت مصدره ومنبعه الاختلاف العقدي،قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ (١).

ثم فصلت كيفية التعامل مع هذا الاختلاف العقائدي حتى لا يؤثر على المجتمع، وذلك من خلال الالتزام بعدد من الأسس تكمن فيما يلي: -.

١- **عدم التسلط على المخالفين وإجبارهم على ما يخالفهم**، أو ما يطلق عليه بالمفهوم السياسي: التعايش السلمي.

٢- الدعوة والتبليغ مع التركيز على جانب الإنذار لسببين: -

١) أن التهديد والتخويف من عقاب الله تعالى يجدي أكثر مع أصحاب الأهواء.

٢) أن عاقبة الاختلاف وخيمة، فإنها إذا اتسعت سوف تؤول إلى الفرقة، والتشتت، ولذا ختم بقوله ﷻ: ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾

٣- البحث عن نقاط للتلاقي داخل المجتمع يمكن الاجتماع عليها، والتعاون من خلالها أوثر التعبير بلفظ يوم الجمع وأليه ذلك الشورى إذ من خطواتها جمع الأفراد على مسألة واحدة للخروج برأي صائب فيها، وذلك في الأوامر التي لا تمس العقيدة ولا الشريعة، فالمقصود أمور إدارة المجتمع.

ثم أوضحت الآيات أن الاختلاف ليس كله مذموما، بل منه ما يعتبر من **الاختلاف المحمود وهو رحمة**، كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾، وذلك يكون في الفروع والجزئيات.

أما الاختلاف المذموم فهو ظلم يجره المرء إلى نفسه ومن حوله.

والسبب الأول في الجنوح إليه هو مولاة غير الله تعالى، وذلك بصورتين: -

١- عبادة غير الله تعالى.

٢- طاعة غير الله لمصلحة ضيقة، أو هوى شخص، أو نزوة عابرة.

---

(١) سورة الشورى الآية ٦.

ولذ فالحل الأمثل للوقاية منه تكون بموالاة جميع المسلمين لله تعالى، والحرص على مرضاته في كل الأمور عموما، والتحاكم إليه خصوصا.

ولذا خصته الآيات بالذكر عند معالجة الاختلاف، فقال ﷻ: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾

وتعلل الآية ذلك بعدة أسباب:

العلة الأولى: أن الله هو الرب الخالق، والعليم بما يناسب خلقه، ويصلحهم، ويزيل عنهم أسباب الاختلافات.

التعليل الثاني: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ الموجد للكيفية، والهيئة التي جعلت السموات والأرض يتكيفان مع بعضهما على الرغم من اختلافهما، ومن ثم فهو العليم بما يوحدكم على الرغم من اختلافكم، لأنه خالقكم ومن أمثلة ذلك أن جعل اختلافكم بين ذكر وأنثى سببا للإيناس، وزيادة النسل.

التعليل الثالث: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ فهو وحده واحد أحد، ومن غيره أزواج وألوان.

التعليل الرابع: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ أي عنده علم وملكية لمفاتيح كل شيء، فهو العارف بمفاتيح الخلاف، وكيفية تجنبه.

التعليل الخامس: وضعه لشريعة تحافظ على وحدة المجتمع، وتحول بينه وبين الفرقة.

هذه الشريعة تتعامل مع الفرقة قبل وقوعها من باب الوقاية والاحتياط، وبعد وقوعها للعلاج.

ولما كانت تفاصيل هذه الشريعة الجامعة متداخلة مع موضوع الفرقة في آية واحدة أجلت الحديث عنها للمبحث الثالث.

المبحث الثالث
الانتقال من الاختلاف إلى الفرقة

المطلب الأول

سبل الوقاية من الفرقة والأسباب الدافعة لها

قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [1].

الدراسة التحليلية

تورد هذه الآية تعليلا خاصا لأهمية التحاكم إلى الله تعالى، والذي يتمثل في سنه لشريعة واضحة تحافظ على وحدة المجتمع، وإبقائه داخل دائرة الاختلاف والتنوع، وتحول بينه وبين الفرقة والتمزق، وتضع آلية لعلاج الفرقة إن وقعت، فقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

﴿ شَرَعَ ﴾: أي بين وأوضح لكم المسالك، وأصل شرع: جعل طريقا واسعا، ومنه أطلق الشارع على الطريق الأعظم، وكثر إطلاقه على سن القوانين والأحكام العملية فقيل شريعة [2].

﴿ مِّنَ ﴾: تبعيضية للدلالة على أن الشريعة جزء من الدين، فالدين يقوم على ثلاثة أركان: عقيدة، وشريعة، وأخلاق.

أو يكون معنى ﴿ مِّنَ ﴾ مرتبطا بما بعدها، فيكون المعنى شرع لكم بعض الدين مماثلا لما جاء به نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وهذا يقتضي أن يكون بعضه الآخر مغايرا.

ويقع التماثل في الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر.

---

(١) سورة الشورى الآية: ١٣

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ١٠.

أما الاختلاف فواقع في الشرائع والأحكام، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [1].

ومع هذا التلاقي والتماثل فإن الشريعة الإسلامية هي الحاكمة على غيرها من الشرائع، ومن ثم عبرت الآية في جانب الشرائع الأربع بالفعل ﴿ وَصَّىٰ ﴾، وفي جانب شريعة محمد ﷺ فعل الإيحاء، لأن الشرائع السابقة كانت شرائع مؤقتة بورود شريعة بعدها، فكان العمل بها كالعمل الذي يقوم به مؤتمن على شيء حتى يأتي صاحبه [2]

أما شريعة محمد ﷺ فهي قائمة إلى قيام الساعة.

﴿ أَنْ ﴾ تفسيرية لمجموع ما وصى به الأنبياء والرسل من إقامة الدين، وعدم التفرق.

وإقامة الشيء: جعله قائما، وهي استعارة للحرص على العمل به [3]، ويكون ذلك بتوفيه حقه، والإتيان بهيئاته، وشرائطه، وفرائضه، ومراعاته في الأوقات والأزمان والأمكنة.

والأمر بإقامة الدين موجه لجميع أتباع الأديان السماوية بإقامة ما اتفقوا فيه من الإيمان بالله تعالى، والطاعة، ومحاربة الإلحاد والكفر، والحفاظ على الأخلاق، ومحاربة الرذيلة، ومراعاة حرمة الدماء.

يقول البيضاوي: " أي شرع لكم من الدين: دين نوح، ومحمد –عليهما السلام – ومن بينهما من أرباب الشرائع الأصل المشترك فيما بينهم المفسر بقوله ﷻ: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ وهو الإيمان بما يجب تصديقه، والطاعة في أحكام الله ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾، ولا تختلفوا في هذا الأصل، أما فروع الشرائع فمختلفة [4].

وقد يكون الأمر موجه للمسلمين أهل القرآن والمكلفين به.

والمعنى: أقيموا الدين بجميع أركانه: عقيدة، وشريعة، وأخلاق، ولا تقيموا بعضه وتهملوا البعض الآخر.

---

(١) سورة المائدة الآية: ٤٨.
(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ٥٢، ٥٣.
(٣) التحرير و التنوير ٢٥/ ٥٣.
(٤) تفسير البيضاوي بحاشية شهاب ٨/ ٣٣٩.

أو: لا تتفرقوا في إقامته بأن ينشط بعضهم لإقامته ويتخاذل البعض، **أو يسعى لهدم ما أقامه الآخر**، إذ بدون الاتفاق على إقامة الدين يضطرب أمره [1].

وأصل الفرقة: الانفراد والانفصال، بحيث تنقطع الروابط، وتتسع المسافة بين الذوات فيتشتت الشمل [2]، وتتمزق الكلمة، فالمقصود بيان أن الأديان وإن كانت مختلفة لا ينبغي أن يتفرق أصحابها، وتنقطع روابطهم لوجود أصل ديني جامع بينهم وهو الإيمان بالله تعالى.

أو لا ينبغي لهم أن يتعادوا ويتقاتلوا بسبب اختلافهم في الدين، فتكون ﴿فِيهِ﴾ سببية.

كما لا ينبغي لأصحاب الدين الواحد أن يتفرقوا ويتشتتوا عند العمل بهذا الدين.

ثم قال ﷻ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

﴿كَبُرَ﴾ أي صعب وثقل فالكبر مجاز استعير للشيء الذي لا تطمئن إليه النفس.

والمعنى: أن المشركين يصعب عليهم الانقياد لهذه الدعوة [3]، **ويرجع ذلك لعدة أسباب:** –

منها: أنها تتطلب الاجتماع والاتحاد وتألف النفوس، والمساواة بلا اعتبار للحسب والنسب، والغنى، وهذا مخالف لما ألفوه.

ومنها: أنها تجعل الدين كله لله، وتلغي عبادة الأصنام، وقد أخبر الله ﷻ عنهم قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [4].

ومنها: تعارض الدين مع مصالحهم الاقتصادية من إلغاء تجارة العبيد، وفرض الزكاة....

والجملة استئناف مسوق لبيان أولى العقبات التي تعرقل إقامة الدين، وتضع له العراقيل، وهي بغض المشركين، وعدم تقبلهم لهذا الدين، ومحاربتهم له.

---

(١) التحرير و التنوير ٢٥/ ٥٤.
(٢) المفردات للراغب ٣٧٧، ٣٧٨، و التحرير و التنوير ٢٥/ ٥٣.
(٣) التحرير والتنوير ٢٥/ ٥٤.
(٤) سورة ص الآية: ٥.

أو لعله جواب عن سؤال قد يعرض: وما الذي يمنع المؤمنين من إقامة الدين، ويدفعهم للفرقة التي تأباها النفوس ؟

فكان الجواب " فلأجل كبره على المشركين يسعون في تفرقكم عنه، فإن تفرقتم عنه كنتم قد تابعتم العدو الحسود [١].

وعبر عن صنع المشركين بلفظ ﴿كَبُرَ﴾ للإشارة إلى تجذر بغض المشركين للأديان في قلوبهم، فلا سبيل للتوقف عن محاربة الدين في أي زمان ومكان.

أما كيفية الوصول إلى إقامة الدين، والحفاظ على الوحدة في ظل عقبات المشركين، فقد أرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، والاجتباء: الاختيار [٢].

والمعنى: أن الله تعالى يختار ويصطفي من يقيم دينه، ويوفقه للخير، وإلى التمسك بالوحدة، وعدم التفرق، سواء في أول الأمر أو في آخره

﴿مَن يَشَاءُ﴾ أي بمحض إرادة وفضل من الله تعالى.

وقيل الاجتباء بمعنى الجمع، أي يجمع من يشاء إلى الوحدة حتى ولو بعد التفرقة عنها، وعلى هذا فأهل الاجتباء غير أهل الاهتداء " [٣]

﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾

يهدي من الهداية التي هي الدلالة والإرشاد، وتكون بمعرفة الحق، والتوفيق للعمل بمقتضاه، والثبات والاستقامة عليه.

﴿مَن يُنِيبُ﴾ الإنابة: الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة وإخلاص العمل [٤].

والفعل المضارع يفيد التجدد والاستمرار.

والمعنى: يوفق الله تعالى لإصابة الحق من يجتهد في إصابة الحق، ويراجع نفسه ويحاسبها على كل أفعالها، فإن وجد خطأ تاب ورجع إلى الله تعالى، وجدد العزم على فعل الخير.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٧/ ٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) تفسير القرطبي ٨/ ٣٣٦.

(٣) روح المعاني للألوسي ٢٤/ ٢٣.

(٤) المفردات في غريب القرآن للراغب ص٥٠٨.

وهذا يدل على أن الثبات على طريق التوافق والاتحاد، وعدم الانحراف وراء دعاوي الفرقة والاختلاف يحتاج إلى:

١- توفيق من الله ﷻ.

٢- مراجعة النفس وتهذيبها بصورة دائمة.

ثم يقدم سبحانه مثالا على تأثير الأسباب الخلقية في إحداث الفرقة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾[١].

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ ﴾ أي وما تفرقت الأمم في أديانهم إلا من بعد ما جاءهم العلم على لسان رسلهم من النهي عن التفرق في الدين مع توضيح مفاسد التفرق وأضراره، أي أنهم تفرقوا عالمين بمفاسد التفرق غير معذورين بالجهل [٢].

﴿ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ ﴾

١) لأجل العداوة بينهم.

٢) لابتغاء الدنيا وطلب ملكها.

ويقول الرازي: " وما تفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة، ولكنهم فعلوا ذلك للبغي، وطلب الرياسة، فحملتهم الحمية النفسانية، والأنفة الطبيعية على أن ذهب كل إلى مذهب، ودعا الناس إليه، وقبح ما سواه للذكر والرياسة، فصار ذلك سببا لوقوع الاختلاف " [٣].

﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ يخبر سبحانه وتعالى أن المتفرقين عن دينه استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل إلا أنه أخر عنهم ذلك العذاب إلى أجل مسمى، أي وقتا معلوما [٤].

---

(١) سورة الشورى الآية: ١٤.

(٢) التحرير ١٢/ ٥٦، وتفسير الماوردي/ ١٩٧.

(٣) مفاتيح الغيب/ ٢٨.

(٤) مفاتيح الغيب للرازي ١٤/ ٢١.

وتنكير ﴿كَلِمَةٌ﴾ للتنويع، لأن لكل فريق من المتفرقين في الدين كلمة من الله تعالى في تأجيلهم إلى أجل مسمى، فهي آجال متفاوته في الطول والقصر، ومختلفة بالأزمنة والأمكنة [1] فربما عذبهم في الدنيا، وربما في الآخرة

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، وإن أهل الكتاب الذين في عهد النبي ﷺ، الموجودين في زمن نزول الآية ممن ورثوا الكتب السماوية من أسلافهم قد تفرقوا في تطبيق صفات النبي الموعود به تفرقا ناشئا عن التردد والشك دون بذل الجهد في تحصيل اليقين [2].

ولذا تفرقوا إلى فريقين:

فريق بقي على حاله من الشك حسدا وعنادا، **وفريق أيقن أن** الإسلام حق وآمن.

هذا على جعل ﴿مِّنْهُ﴾ راجعة إلى: الدين في ﴿أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾، أو الرسول في ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، وربما تكون راجعة إلى قوله تعالى: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ﴾ أو ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، فيكون دلالة على شكهم وتفرقهم في تصديق ما بين أيديهم، كما قال النبي ﷺ: **(افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، وسبعون في النار، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة،**

وثنتان وسبعون في النار ".

قيل: يا رسول الله من هم ؟

قال: " الجماعة ") [3].

والشك والريب متقاربان، إلا أن في الريب ظن سوء، أي تغليب لجانب الشر على الخير دون دليل.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٢/ ٥٧.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٢/ ٥٨.

(٣) سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، حديث رقم: ٤١٣٧ ص ٥٧٧، وقال ابن ماجة: حديث إسناده جيد.

وفي وصف الشك بالمريب دلالة على أن هذا الشك قد اتسع حتى جنح إلى التأثير الفعلي، **فالريب: قلق النفس وإضرابها** مما يدفعها إلى عدم الامتثال، **والمعنى: أن أهل الكتاب** الذين لديهم شك في الإسلام ورسوله قد مالوا إلى التكذيب دون دليل أو بينة نظرا لما وقع لديهم من القلق من هذا الدين.

وقد يكون المعنى أن أهل الكتاب الموجودين في زمن النبي ﷺ قد ورثوا الشك في كتابهم من أسلافهم، مما ولد عندهم القلق والاضطراب منه فلم يطبقوا ما فيه من صفات النبي الموعود.

الدراسة الموضوعية

أضافت هذه الآية – الثالثة عشر من سورة الشورى – تعليلا خامساً مفصلا لأهمية ولاية الله تعالى، والتحاكم إليه عند الاختلاف، وهو وضعه لشريعة عملية تفصل كيفية حل الخلاف حتى لا يستفحل إلى فرقة كالتالي:

١- **التعاون فيما تم الاتفاق عليه**، وهذا ما يتضح في أمره بصيغة الجمع بإقامة الدين ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾فيمكن للمسلم مع غيره من المسلمين، أو من غير المسلمين أن يتعاونوا لنشر التوحيد، ومحاربة الشرك، أو دفع الظلم، وهذا ما فعله النبي ﷺ في حلف الفضول، وأثنى عليه بعد البعثة.

٢- **التغاضي عن الخلافات الجانبية أو الفرعية** التي لا تضر أصل الدين وعدم توسيعها، سواء بالجدل أو الانقسام في العمل، فذلك هو الذي يجعل الخلاف فرقة، وهنا يمكن صوغ دعامة قوية، وقاعدة أصلية لكيفية دعم الاختلاف، ونبذ الفرقة وهي **(التعاون في المتفق عليه، والتغاضي والتماس العذر في المختلف عليه)**، ولا شك من أن الاشتراك في العمل الواحد يؤلف الجهود، ويصرف الهمم والعزائم نحوه فتقل مساحة الاختلاف حتى تتلاشى، ويقوى التأثير، ويحصل المقصود، **أما الفراغ العملي** فإنه يفتح الباب للخلاف في الأمور اللفظية والشكلية، مما قد يقود إلى الفرقة، وضياع أمور الدين من خلال ذلك الاختلاف، ثم هو لا يلبث أن يلقي بالأمة إلى العداوة بينها، وقد يجرهم إلى أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر.

يقول الرازي: " إن حصول التنازع ضد مصلحة العالم، لأن ذلك يفضي إلى الهرج والمرج، والقتل، والنهب " (١)

فإقامة الدين بقواعده، وأصوله، وتطبيقاته التي منها الشورى هو الذي يعصم الاختلاف من التحول إلى الفرقة والتنازع، وبه استطاعت الخلافة الإسلامية استيعاب الاختلاف العرقي (العربي والكردي)، والديني (الإسلامي والقبطي) وحتى اللغوي على مدى قرون.

٣- **الاتفاق على أمور عامة** لا يخرج الاختلاف عنها:

أ- **أن الاختلاف يقتصر على مرحلة الآراء والمشاورات،** ولا يمتد إلى العمل حتى لا تضطرب أمور الأمة ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾.

ب – أنه لابد من تغلب رأي على آخر، فالشريعة الإسلامية مع إنها تلتقي وتتفق مع غيرها من الشرائع في جوانب، وتفارقها في جوانب أخرى، إلا أنها شريعة ناسخة وخاتمة لغيرها ينبغي أن يحتكم إليها في أمور الاختلاف، ولذا على الجماعة المؤمن تحديد آليات الجهة الغالب أمرها.

وبعد أن أوضحت الآيات منهج هذه الشريعة في الوقاية من الفرقة عرجت إلى ذكر أسباب الفرقة فأرجعتها إلى سببين:

١) **السبب الخارجي:** وقرنت معه الحذر من دسائس المشركين لحرصهم على ما يمزق جماعة المسلمين، أو يفرق كلمتهم من العداوة الظاهرة، أو البغضاء الباطنة.

٢) **السبب الداخلي:** وهو ينبع من داخل الأفراد، ولذا وجهت الآية الكريمة الأفراد إلى أهمية كثرة الإنابة إلى الله تعالى للتخلص من أسباب الفرقة.

فالفرقة لها أسباب خلقية، وفكرية، وحياتية، والتغلب على الأسباب الخلقية من التعصب والحسد، والحقد، واتباع الهوى، والبغضاء والغرور، والكبر وسوء الظن لا يتم إلا بكثرة الإنابة إلى الله تعالى.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٢٧/ ٢٠.

يقول الشيخ القرضاوي: " كثيرا ما تكون الخلافات بين الأفراد والفئات ظاهرها أنه خلاف على مسائل في العلم، وقضايا في الفكر، وباطنها حب الذات واتباع الهوى الذي يعمي ويصم، ويضل عن سبيل الله.

ومن هنا نوه الحديث الشريف بأولئك الجنود المجهولون الذين يذيبون حبات قلوبهم، وينفقون أغلى أيام أعمارهم في نصرة دينهم، وطاعة ربهم دون أن تسلط عليهم الأضواء، أو يشار إليهم بالبنان، **فعن زيد بن أسلم، عن أبيه م أن عمر ﷺ خرج إلى المسجد يوما فوجد معاذ بن جبل ﷺ عند قبر رسول الله ﷺ يبكي، فقال: ما يبكيك يا معاذ ؟**

قال: يبكيني حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: " اليسير من الرياء شرك، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة) (١) (٢).

ثم يضرب الله ﷻ مثالا على تأثير الأسباب الخلقية في إحداث الفرقة في الأمم السابقة، فيقول ﷻ: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾

فالآية تحصر سبب فرقة أتباع الأنبياء في سببين:

الأول: حب الدنيا وطلب ملكها ﴿ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ ﴾

الثاني: الشك وسوء الظن ﴿ لَفِي شَكّٖ ﴾.

وهذه الفرقة والطبيعة النفسية الشائكة امتدت بهم إلى زمن النبي غ فجعلتهم في شك منه، وحملتهم إلى السعي في تفريق المؤمنين به.

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب الإيمان، باب أولياء الله تعالى والتحذير من معاداتهم، ١/ ٤ حديث رقم: ٤، وقال حديث صحيح على شرط الشيخان ولم يخرج في الصحيحين.

(٢) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص١٢٦، ١٢٧.

المطلب الثاني
كيفية علاج الفرقة إن وقعت

يقول الله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١).

الدراسة التحليلية

تقدم الآيات للنبي ﷺ منهجا في كيفية معالجة أسباب الفرقة والتعامل مع الفرقاء عموما وأهل الكتاب خصوصا باعتبارهم فرقاء عن المؤمنين في العقيدة، فيقول تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ﴾.

ثم ذكرت السورة للنبي ﷺ كيف يتعامل معهم ومع أسباب الفرقة عموما، وكيفية معالجة الفرقة بعد وقوعها، والتعامل مع الفرقاء.

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ الفاء في جواب شرط مقدر، **واللام تعليلية**، والمعنى أي إذا كان الأمر كما ذكر فلأجل ذلك التفرق، ولما حدث بسببه من تشعب الكفر في الأمم السالفة ﴿فَادْعُ ۖ﴾ إلى الائتلاف والاتفاق على الملة الحنفية (٢)

وقد تكون اللام متعلقة بالفعل (ادع) لإفادة صلة الدعاء وهو المدعو إليه(٣)

والمشار إليه بقوله (ذلك) هو الدين الذي تقدم ذكره في قوله ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾، **والمعنى:** إذا كان أهل الكتاب قد تفرقوا، فلأجل ذلك التفرق، وما يترتب عليه من تنازع وتفرق فادع إلى الدين الذي أنزله الله إليك، فإنه هو العاصم من الفرقة.

﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ﴾ **والمعنى:** داوم واثبت على أداء ما أمرك الله به من تعاليم في كل أمورك، فإنها هي الحافظة لك من التفرق والانقسام.

ويستفاد من الأمرين مع- دعاء الغير، واستقامة النفس- عدة أمور منها: -

---

(١) سورة الشورى الآية: ١٥.

(٢) روح المعاني للألوسي ٢٥/ ٢٣.

(٣) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٨/ ٣٤١.

١- ألا ينشغل المرء بأمر غيره عن إصلاح النفس.
٢- أن كمال الدعوة لا يتحصل إلا إذا كان الداعي مستقيما في نفسه وعمله.
٣- ألا يكون تقصير الغير وتفرقه عذرا للغير أن يحذو حذوه.

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ الأهواء جمع هوى، **وهو ميل النفس إلى الشهوة**، مما يهوي بها في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية [١].

والضمير في ﴿ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ يعود إلى الذين ذكروا من قبل وهم المشركين وأهل الكتاب. وإنما نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن اتباع أهوائهم لأنها موافقة للباطل، فلو اتبعها ﷺ لانحرفت به عن الحق عموما وإلى الفرقة والتشرذم خصوصا.

ويتبع المرء هوى غيره بعدة أشكال... منها:-

١) أن يستمع إلى ما يطلبه ويأمره به، مما فيه مخالفة للحق، فيكون متبعا لهوى غيره.
٢) أن يقلد غيره في فعله المخالف للحق، حتى وإن لم يدعه إليه.
٣) المجاراة في المعاملة بالمثل بما فيه مخالفة للحق.

ولما كانت الآيات السابقة قد ذكرت أن هوى المشركين، وأهل الكتاب ومن جرى مجراهم متسق مع الفرقة فإنه يدخل في النهي النهي عن الانجرار إلى الفرقة تأثرا بهم، أو اتباع نهجهم في علاج الاختلافات، أو مجاراة لهم في المعاملة بالمثل وعدم الصبر على الحق.

مثل أن يدفع عدم إيمانهم بكل الرسل والطعن في الإسلام المؤمن إلى الطعن في دينهم، وعدم ذكر فضائل رسلهم.

وفي إيثار التعبير بـ(هم) بدلا من الاسم الظاهر في قوله تعالى:﴿ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ تعميم يُدخِل في الآية المذكورين في السياق من المشركين، وأهل الكتاب، وكل من سعى لنشر الفرقة بين المؤمنين، ليقع التناسق بين الآية، وموضوع السورة، وسياق الآيات.

ذلك أن القدح والطعن يقلل المساحة الجامعة المتفق عليها، ويجرح النفس جرحا قد يصعب التئامه بعد ذلك مما يعذر، ويصعب الالتقاء بعد مرحلة الخلاف

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٥٤٨.

فإن الإنسان قد يخطأ، ويبتعد عن الحق، ويقع في الفرقة، ولكنه قد يراجع نفسه، أو يراجعه أخوه فيرجع إلى الحق أما إذا ما وقع الطعن والجرح فإن فرصة المراجعة والالتقاء تصعب.

﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ مثال لعدم المجارة في المعاملة بالمثل مع دعاة الفرقة، فعلى الرغم من عدم إيمان أهل الكتاب بالرسول ﷺ، وتفريقهم في الإيمان بالأنبياء كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ [1] فإنه ﷺ يعلن إيمانه بكل الكتب المنزلة، ولا يكتفي بالتطبيق العملي بل يضم إليه القول لتبقى هذه الحقيقة مقررة في النفس ثابتة في الأذهان، معلنه أمام الجميع علها تجد من المتفرقين استجابة يوما ما، كما أن فيها إشارة إلى أنه ينبغي السعي في نشر ما يؤلف ويجمع من الأصول والحقائق والحديث عنها باستمرار.

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾

بيان من الرسول ﷺ لليهود والفرقاء الداخلين تحت حكمه بأن العدل أساس حكمه، وهذا ليس منة منه بل أمر أمره الله به، ولذا قال: ﴿ وَأُمِرْتُ ﴾ ولم يقل (وسأعدل) وقد يكون هذا العدل بينه وبينهم، أو بينه وبين جميع المنطوين تحت حكمه في تبليغ الشريعة، وفصل الخصومة..

يقول القفال: معناه أن ربي أمرني أن لا أفرق بين نفسي وأنفسكم، بأن أمركم بما لا اعمله، أو أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه، ولكني أسوي بينكم وبين نفسي [2].

يقول ابن عاشور: وفي هذه الآية مع كونها نازلة في مكة في زمن ضعف المسلمين إعجاز بالغيب، لأنها دلت على أن الرسول ﷺ سيكون له الحكم على يهود العرب مثل أهل خيبر، وبني قريظة، وبني النضير، وقد عدل فيهم وأقرهم على أمرهم حتى ظاهروا عليه الأحزاب [3].

---

(١) سورة النساء الآية: ١٥٠.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي ٢٣/ ٢٢.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥/ ٦٢ بتصرف.

وفـي الآيـة إشـارة إلـى أن الفرقة وإن وقعت في العقيدة فإن هناك أمور أخرى من الممكن أن تجمع بين الفرقاء مثل الانطواء تحت حكم واحد تحدد آليته مثل ما فعل رسول الله ﷺ مع اليهود حين قدم المدينة، وهو ما يسمى أو يعرف حاليا بالمواطنة.

وتقوم هذه الآليات على: -

١- الإقرار برب واحد والاتفاق على توحيده كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ إن كان أبناء المجتمع من اتباع ديانات سماوية، أو الإقرار بحرية الاعتقاد.

٢- المتاركة واشتغال كل واحد في الدنيا بعمله، فإن الله ﷻ يجمع ببين الكل يوم القيامة ويجازيه على عمله [1]، ولذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

فإن قيل: كيف يليق بهذه المتاركة ما فعل بهم من القتل وتخريب البيوت، وقطع النخيل والإخلاء.

والجواب: إن هذه المتاركة كانت مشروطة بكفهم عن المؤمنين، والدفاع معهم عن أعدائهم فلما نكثوا عهدهم، وخانوا ما شارطهم عليه النبي ﷺ في الصحيفة فعل بهم ما فعل، جاء في الوثيقة ما روي عن ابن شهاب ﷺ أنه قال:(**بلغني أن رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب: " بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي رسول الله ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، فحل معهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس،....، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة من المؤمنين، لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم، ومواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود الأوس مثل ذلك، إلا من ظلم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم، على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينكم النصح والنصيحة والنصر للمظلوم، وأن**

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٢٣/ ٢٢.

المدينة جوفها حرم لأهل هذه الصحيفة، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن أمره إلى الله وإلى محمد النبي، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب،.....) (١).

٣- **عدم المحاجة والطعن في الدين.**

﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا ﴾

الحجة هي الدلالة البينة للحجة أي المقصد المستقيم (٢).

ولا يعقل أن يكون المقصود تحريم الحجة إذ هي الطريق لدعوة الناس إلى الإسلام، وتوجيه التكاليف، وإنما المقصود قطع المحاجة بعد ظهور البراهين، وقيام الحجج، وإعلاء الحق، إذ لا يبقى إلى المحاجة فائدة إلا المحاجه الباطلة بغيا وعدوانا، ويؤيده قوله ﷻ في الآية التالية:﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ (٣) (٤).

٤-تفويض الحكم على العقائد إلى الله ﷻ، إذ هو الذي يجمع الخلائق يوم القيامة فيخبر كل فريق بعاقبة عمله، ومآل مصيره، ولذا قال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

الدراسة الموضوعية

تضع هذه الآية منهجية للتعامل مع فرقاء الدين الذين يمكن أن تجمعهم مع المؤمنين مظلة أخرى كالوطن وغيره، وتقوم على ما يلي: -

١- الحفاظ على المبادئ والقيم الداعمة للاتحاد والتلاقي والثبات عليها ﴿ وَٱسۡتَقِمۡۖ ﴾

٢- الدعوة إلى هذه المبادئ والقيم ﴿ فَٱدۡعُۖ ﴾.

---

(١) الأموال لابن زنجويه - كتاب العهود التي كتبها رسول الله ﷺ وأصحابه، هذا كتاب رسول الله ﷺ بين المؤمنين وأهل الكتاب - حديث:٥٧٤

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني ١٠٧.

(٣) سورة الشورى الآية: ١٦.

(٤) ينظر مفاتيح الغيب للرازي ٢٣/ ٢٣ بتصرف، تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٨/ ٣٢٤.

٣- عدم مجاراة الفرقاء في أسباب الفرقة حتى لا تتسع الهوة والفجوة ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

٤- إظهار الحرص على الثوابت الجامعة قولا وعملا ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾.

٥- الحرص على حق الغير وإن وقع اختلاف معه أو افتراق ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾.

٦- العمل على الوصول إلى قاعدة مشتركة، واتفاقية واحدة يتراضى حولها الفرقاء لكيفية إدارة الجوانب المشتركة ويمكن تسميتها بالدستور ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

٧- المتاركة بشرط انشغال الفرقاء بأنفسهم، وعدم اعتدائهم على غيرهم.

٨- عدم المحاجة والمخاصمة والطعن في الدين ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا﴾.

المبحث الرابع
جنوح الفرقاء إلى الخصومة اللفظية

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

الدراسة التحليلية

وضعت الآيات السابقة منهجا للتعامل بين الفرقاء يقوم على عدم التعرض لدين الآخر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا ﴾.

ثم انتقلت في هذه الآيات لبيان كيفية التعامل مع من يخالف هذا المبدأ، فقال ﷻ: ﴿ يُحَآجُّونَ ﴾، والمحاجة: المناظرة والمجادلة، **وهي مشروعة لما فيها من تعريف الناس بالإسلام**، وإيراد الأدلة والحجج القوية والبراهين الساطعة، ودفع الشبهات والأباطيل التي يروجها رافضوه، ولذا فهي مطلوبة.

قال ﷻ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[2] أما إن أدت مطلوبها، وحققت غرضها كانت ضربا من المجادلة بالباطل.

والآية التي بين أيدينا تتحدث عن طائفة من الناس لم يرضهم أن يمكن لدين الإسلام في الأرض، فتنشرح به الصدور، وتطمئن إليه الأفئدة، ويمضي بحكمه في الأرض، فأخذوا يثيرون حوله القيل والقال، ويشككون في أحكامه وتشريعاته تارة، وفي نصوصه وآياته تارة أخرى، مستغلين الحرية التي منحهم الإسلام لهم، ولذا فإن المراد بـ﴿ يُحَآجُّونَ ﴾ في هذه الآية يختصمون في دين الله [3] بسوق

---

(١) سورة الشورى الآية: ١٦.
(٢) سورة النحل الآية: ١٢٥.
(٣) مفاتيح الغيب للرازي ٢٢/ ٢٣.

الدلائل والبراهين العقلية بما يوحي بوجود نظر مستقيم في الأمر.

ويمكن حصر أفراد هذه الطائفة في ثلاث فئات:

الفئة الأولى: أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ذلك أنهم قالوا: ألستم تقولون أن الأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف ؟ فنبوة موسى وحقيقة التوراة معلومة بالاتفاق، ونبوة محمد ليست متفق عليها، فإن بنيتم كلامكم في هذه الآية على أن الأخذ بالمتفق عليه أولى وجب أن يكون الأخذ باليهودية أولى [1].

الفئة الثانية: المشركون، لأنهم يحاجون في الوحدانية، ويصدون الناس عن سبيل الله تعالى طمعا في عودة الكفر [2].

الفئة الثالثة: المنافقون الذين يلقون الشبهات حول الدين الإسلامي، وفي الإدغام في قوله ﴿ يُحَآجُّونَ ﴾ بدلا من الإظهار بالقول (يحاجون) إشارة إلى أن أهل هذا الضرب يلقون شبهاتهم في خفاء، أو يظهرونها تحت شعارات أخرى ملتوية من باب التنوير، والحرية والمساواة، وحرية المرأة [3]، وتحت هذه الشعارات الرنانة يخفون أهدافهم الحقيقة من الطعن في الإسلام ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ من بعد ما استجاب الناس لذلك الدين، واستقاموا على هديه وشريعته.

﴿ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ ﴾ أي شبهتهم باطلة، وإطلاق اسم الحجة على شبهاتهم مجارة لهم على طريق التهكم.

﴿ دَاحِضَةٌ ﴾ باطلة زائلة ﴿ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ لأنه خالقهم وبارئهم، وهو الذي أفاض عليهم بالعقل الذي استخدموه في المحاجة والمجادلة، ولذا فإنهم مهما حاولوا تجويد حجتهم

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٢٣/ ٢٣، وجامع البيان في تفسير القرآن الطبري ١١/ ١٣٨، ١٣٩.
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٤/ ٦٥.
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للباقعي ١٧/ ٢٧٧.

وتقويتها فهي ضعيفة وواهية بل ظاهرة منكشفة أمام خالقهم الذي يجازيهم عليها، ففي التعبير بـ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ إشارة إلى أنها هباء منثور عند تدقيق النظر [1].

ودحض حجتهم يكون:

١- بما أنزله الله تعالى في تضاعيف كتابه من الأدلة على بطلان شبهاتهم، وصدق رسوله، أو يكون.

٢- بالواقع بظهور خلاف ما يقتضيه زعمهم [2] وتحقيق خلاف ما يتمنونه، وذلك بما ظهر للعيان من " تزايد المسلمين يوما فيوم وأمنهم من يعتدي عليهم، فيكون في الآية بشارة للمسلمين بمكة بتمكين دين الله، واستجابة الناس له، وذلك لأن نصرة الإسلام لم تتحقق إلا ببدر، وكذلك استجابة أهل الكتاب للإسلام لم تكن إلا بالمدينة، والآية مكية فتكون وعدا [3].

﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾شديد من الله كما يقتضيه التنكير، وذلك بحجب النعم، وحرمان التوفيق والخيبة في تحقيق مرادهم.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في الدنيا سواء على يدى المؤمنين، أو بما يجريه الله عليهم من مصائب ونقم، وفي الآخرة بالعذاب الأليم.

يقول البقاعي: " ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ أي عقوبة تليق بحالهم المذموم، ومنه الطرد فهم مطردون عن ذاته، مبعدون عن جنابه، ولما أفهم التعبير بـ(على) ذمهم باستيلاء النقم عليهم، لم يشكل التعبير باللام، بل كان مفهما التهكم والملام، فقال: ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أي مع ذلك ﴿ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لا تصلون إلى إدراك حقيقة وصفه [4]

---

(١) نظم الدر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٧/ ٢٧٩

(٢) روح المعاني للألوسي ٢٥/ ٢٥.

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٣٤٣.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٧/ ٢٨٠..

وهذا وعيد متجدد لهم في كل زمان ومكان يحاولون فيه صد الناس عن دين الله تعالى، فيدخل فيه ما أنزل الله تعالى بأهل مكة من القتل يوم بدر، والانتصار على أهل الردة، وضربهم بكل شدة عندما ندب الصديق إلى قتالهم.

ثم أبان الله تعالى لعباده المؤمنين سبل دحض الشبهات وكشفها، فقال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (١)

فذكر إنزال الكتاب وهو القرآن الكريم متمسكا بالأمر الثابت الذي لا يبدل، بما يمكن أصحاب العقول السليمة من معرفة الحجج الثابتة، والعقائد الصحيحة، ودفع الشبهات والأباطيل.

كما ذكر إنزال الميزان، وهو آلة الوزن لمعرفة قدر الشيء مستعارا هنا للعدل كما قال تعالى سابقا: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ (٢).

وعبر هنا بالميزان لأن الحديث هنا عن آلية دفع شبهات المتشككين، وذلك يتطلب وزن شبهاتهم وتقدير أقوالهم، ومدى تأثيرها في باقي أفراد المجتمع الواحد، قبل مجازاتهم بالعدل، أو بالعقوبة الموافقة للضرر الذي أحدثوه، بما يحقق الصلاح، ويبعد الفساد.

فإذا لزمت أقوالهم باب الجدال بالحسنى فالرد بالحجة المنزلة في الكتاب رأيا برأي وحجة بحجة، وقولا بقول، وفكر بفكر، فالإسلام لا يحجر على فكر، ولا يصادر رأيا، ما لم يبرح مكانه لأنه يعلم قوة حجته وثبات قدمه، وأنه كالشمس في وضح النهار.

أما إذا امتدت الأقاويل إلى التحريض وإثارة الجماهير، والطعن في الإسلام وغمزه، ونشر الأكاذيب والفساد، فكل قول يوزن ضرره، ويقرر عقابه بالعدل.

ولم تذكر الآيات عقوبة محددة لأسباب: -

---

(١) سورة الشورى الآية: ١٧.

(٢) سورة الشورى الآية: ١٥.

١- أن السورة مكية، والعقوبات والحدود لم تشرع إلا بالمدينة حتى توجد قيادة مؤمنة تقوم بتنفيذ الحدود

٢- أن من العقوبات ما هو تعزيري، يقرره الحاكم المسلم في ضوء ما يراه من جلب المصلحة، ودفع المفسدة، وإن لم يشرعه الرسول ﷺ، أو نزل به الوحي، حتى يردع دعاة الفتنة الذين يوقعون العداوة بين أفراد المجتمع الواحد.

يقول ابن القيم: " **السياسيه:** ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسل غ ولا نزل به وحي، فإن قيل: " لا سياسة إلا ما وافق الشرع " أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أرادت ما نطق به الشرع فغلط، وتغليط للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والمثل ما لا يجحده عالم بالسير، ولو لم يكن إلا تحريق المصاحف كان رأيا اعتمدوا فيه على مصلحة...، وهذا موضوع مزلة أقدام، ومضلة أفهام، وهو مقام ضنك في معترك صعب... " فرط فيه " طائفة فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، وسدوا على أنفسهم طرقا صحيحة من الطرق التي يعرف بها المحق من المبطل [١]، ومن ذلك ما فعله عمر بن الخطاب ﷺ مع عبد الله بن صبيغ عندما فرض عليه المقاطعة حولا، وحرق كتبه، وذلك لأنه اتهم باتباع ما تشابه من القرآن الكريم [٢] حتى لا يفسد عقائد الناس، ويغرس الشكوك في قلوبهم.

وفي الجمع في التعبير بين لفظي " ربهم "، و" الله " مغزى لطيف مفاده عدم ترك الشيء أو الضرر الصغير حتى يتعاظم، فالله ﷻ مع أنه ربهم، وخالقهم، ويعلم أن حجتهم وشبهاتهم ضعيفة وواهية وأنهم لن يستطيعوا الوقوف أمام دينه لأن جهد

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٤/ ٣٧٢.
(٢) فتاوى ابن تيمية ٢٤/ ١٧٤، ١٧٥، وموسوعة فقه عمر بن الخطاب ص٢١٠.

المخلوق لن يقف أمام إرادة خالقه، ومع هذا شرع الله تعالى تشريعات، وسن قوانين تدحض هذه الشبهات، وتوقف المغرضين والمرجفين.

ثم استطردت الآية للحديث عن يوم القيامة، وهو مناسب للسياق من عدة وجوه: –

١) أن من شبهات المشركين التي يحاجون بها إنكار البعث، كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (١)، فلما ذكر الله تعالى أن إنزال الكتاب يدحض هذه الشبهات، شرع في بيان كيفية رد هذه الشبهات، وذلك بالحديث الواقعي عن الساعة، وكأنه أمر واقع لا محالة قد يفاجئ المحاجون قريبا.

٢) أن الله تعالى أمر المؤمنين بالتوحد وعدم التفرق، ومعاملة الفرقاء بالعدل، فناسب تذكيرهم بيوم القيامة حتى لا يتجاوزوا حدود ما أمروا به.

ومعنى ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾

﴿ وَمَا ﴾ استفهامية، والاستفهام مستعمل في التنبيه والتهيئة.

﴿ يُدْرِيكَ ﴾ أدري من الدراية بمعنى العلم، الكاف للخطاب، والمخاطب غير معين، بل الآية جارية مجرى المثل.

والمعنى أي شيء يعلمك أيها السامع، لعل إتيان الساعة قريب.

- **فإن كانت الآيات خطابا للمحاجين والمشككين، فالمعنى** أي شيء يعلمك أيها المتشكك بقرب الساعة، فإنها على جناح الاتيان فاستعد لها وآمن بها(٢).
- **وقد تكون الآية خطابا للمؤمنين، فالمعنى** أن الساعة على جناح الآتيان، فاتبع الكتاب، وواظب على العدل، واعمل بالشرع قبل أن يفاجئك اليوم الذي توزن فيه الأعمال ويوفى جزاؤها " (٣).

---

(١) سورة سبا الآية: ٧.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥/ ٦٨.

(٣) روح المعاني للألوسي ٢٥/ ٢٦.

ومع نصح الفرقاء ووعظهم على المسلمين ألا يركنوا إلى ذلك بل لابد من المتابعة والمراقبة، لأن التخويف من العواقب لا يجدي مع الجميع.

فها هي الساعة التي يخوف الله بها الفرقاء، يستعجلونها إنكارا واستهزاء، فيقول الله ﷻ: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾ (١).

أما المؤمنون بالله، فيخافون منها، لعلمهم أن فيها مجازتهم، ولذا يتأثرون عند تذكيرهم بها، فيقول ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾، والإشفاق عناية مختلطة بخوف (٢)، فإذا عدى بـ﴿ مِنْهَا ﴾ دل على أن الخوف منها أظهر.

وإنما عني المؤمنون بالساعة، لأن فيها ثوابهم، وملاقاتهم لما وعدوا به، وكان منها خوفهم تعظيما لربهم، وخشية أن لا يكونوا قد أصابوا فيما أمروا به، فهم مستشعرون التقصير مع الجهد في الطاعة.

ثم عطف بجملة ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ لإفادة أن إشفاقهم منها إشفاق عن يقين وجزم لا عن تردد.

﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾

الممارة مفاعلة من المرية بكسر الميم وهو الشك، والممارة: المجادلة الشديدة طلبا لإدخال الشك على المجادل (٣).

والفرق بين الممارة في هذه الآية والمحاجاة في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ ﴾ **أن المحاجاة إيراد للدلائل والبينات لدفع الحجة بالحجة،**

---

(١) سورة الشورى الآية: ١٨.

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٢٦٤.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥/ ٧١، نظم الدر للبقاعي ١٧/ ٢٩٢.

وإنما كانت دلائل الباطل حجة، لأنها تستند إلى شيء من العقل القصد إلى المطلوب.

أما الممارة فلا تهتم بالحجج، وإنما بالتشكيك، وذلك يكون بالأدلة الضعيفة والقوية معا، وبالطريق الصحيحة والملتوية.

والمحاجاة قد تتم بمقابلة المتحاجين لبعضهما وإلقاء كل منهما دليل وحجته

أما الممارة فيمكن أن تتم بإلقاء الشبهات والشكوك بغير قيد من الزمان والمكان

وقد توعد الله تعالى المشككين في دينه بالضلال البعيد توفية لمقصودهم من إضلال الناس فقال ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾فالضلال: الجور عن الحق.

ووصف الضلال بالبعيد وصف مجازي حيث شبه الكفر بضلال السائر في طريق، وهو يكون أشد إذا كان الطريق بعيدا، وذلك كناية عن عسر إرجاعه عن الضلال إلى الحق.

وليس معنى أنهم﴿يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ اكتفائهم بالتشكيك فيها، وإنما المقصود يشككون الناس في دين الله، ذلك أنهم إن شككوا الناس في الساعة سهل التشكيك فيما وراءها من العقائد، والتكاليف الدينية.

وهنا يطمئن الله عباده المؤمنين بلطفه بهم، فيقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [1]

واللطيف اسم مركب من علم ورحمة ورفق خفي [2]، وهو يدل على تعاطي الأمور الدقيقة، والحقائق الخفية التي لا يمكن للحواس إدراكها [3].

---

(١) سورة الشورى الآية: ١٩.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٧/ ٢٨٥.

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٤٥٠

﴿ بِعِبَادِهِۦ ﴾ فلطف الله تعالى متعلق بعباده المخلصين الذين امتثلوا كافة أوامره، واجتنبوا نواهيه.

ولطفه بهم في الدنيا بأن يدبر لهم ما فيه مآل صلاحهم، ويدفع عنهم المضار على وجه يلطف إدراكه، فيخرج لهم من وسط كيد الفرقاء، وحرب المتربصين والمتأمرين فوزا وصلاحا " فهذا عين اللطف فإنه الوصول إلى الشيء بضده " [1]

ويقول أبو حيان: ﴿ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾أي بر بعباده المؤمنين ومن سبق له الخلود في الجنة، وما يرى من النعم على الكافر فليس بلطف، إنما هو إملاء إلا ما آل إلى رحمة ووفاة على الإسلام [2].

﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ ﴾ يعطي من يشاء من العلم والحكمة ما يدفع به الفرقة، ويقمع الشقاق، ويجبر كسر المجتمع، وييسر الخلاف العسير.

﴿ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ﴾ القادر المتمكن من تحقيق مراده.

﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره.

فمنحه سبحانه الرزق أو منعه أو تأخيره ليس عن ضعف أو عجز، وإنما عن حكمة ولطف ورعاية لمصلحة العبد والمجتمع.

وهذا اللطف الإلهي الذي ينزله الله تعالى متى شاء جعله الله تعالى من نصيب عباده الذين يقدمون على عملهم بنية خالصة، فيقول ﷻ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

وأصل الحرث إلقاء البذور في الأرض وتهيأتها للزرع [3].

---

(١)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٧/ ٢٨٥.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٥١٣، ٥١٤.

(٣) المفردات ص ١١٢.

ثم استعير لكل عمل، لأن حرث الأرض أصلا من أصول المكاسب، فقيل الحرث: الكسب والعمل [١].

والإرادة: نزوع النفس إلى الشيء [٢].

و**الآية تؤسس لقاعدة عامة** في كل عمل وهي أن **من كانت نيته من عمله إرضاء الله** والحصول على ثواب الآخرة فإن الله تعالى يبارك له في عمله، ويؤيده بالتوفيق، ويطرح له القبول.

وعلى هذا فالعمل الأخروي يتحقق بأمرين:

الأمر الأول: إخلاص النية لله تعالى، **والثاني:** موافقة العمل لما يحبه الله ﷻ ويرضاه، **فهذان الشرطان هما الذي يجعلان العمل للآخرة.**

أما العمل الذي يكون فيما يرضاه الله والغرض منه تحصيل المنافع المرتبطة به، أو كان مخالفا لما يرضاه الله فهو عمل دنيوي.

وهذه النية المخلصة هي التي تفاوت بين نتيجة العملين، فالعمل الصادر عن نية خالصة يعين الله تعالى صاحبه عليه، وينير قلبه ويمنحه التوفيق والسداد، ويبارك الله له فيه بأن يرزقه القبول بين الناس، وزيادة العمل والإكثار فيه.

أما من نوى بعمله الدنيا فنصيبه منها كما قال الله تعالى:﴿ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ وفق ما قدر الله تعالى لكل مخلوق من مدة حياة، وعافية، ورزق فالله يؤتيه بعض ما يطلبه، ولا يؤتيه كله " **فمن** " للتبعيض،﴿ وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾

ومن ثم فإن ثمار العمل الأخروي أكثر عددا، ومنفعة، وأدوم أثرا وزمنا.

يقول الإمام الرازي: " أنه تعالى قال في طلب حرث الآخرة ﴿ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ ولم يذكر أنه يعطيه الدنيا أم لا، بل بقى الكلام ساكتا عنه نفيا وإثباتا.

---

(١) المحرر ٥/ ٣٢، التحرير ٢٥/ ٧٤.

(٢) المفردات ص٢٠٦.

وأما حرث الدنيا فإنه تعالى بين أنه لا يعطيه شيئا من نصيب الآخرة على التنصيص، **وهذا يدل على التفاوت العظيم** كأنه يقول الآخرة أصل والدنيا تبع، فواجد الأصل واجد للتبع بقدر الحاجه، إلا أنه لم يذكر ذلك تنبيها على أن الدنيا أخس من أن تقرن بذكر الآخرة " (١).

وفي الحديث الذي رواه زيد بن ثابت بن الضحاك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

(من كانت الدنيا همه، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة) (٢).

ثم وجهت الآية خطابها للمؤمنين كاشفة لهم سبب اجتراء هؤلاء المحاجين والممارين على دينهم، فيقول ﷻ: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾

﴿ أَمْ ﴾ للإضراب الانتقالي مع التفريع والإنكار، وفيها دعوة للمؤمنين للانتقال من النظر إلى ظواهر الأحداث إلى الغوص في الأعماق للبحث عن أسباب الفرقة والاجتراء على الطعن، وبث بذور العداوة والبغضاء، إذ قد ينضم إلى الأسباب الداخلية وجود تحريض خارجي.

﴿ لَهُمْ ﴾ في تقدير عود الضمير عدة احتمالات:

- **أنه عائد على مذكورين في الآيات السابقة** في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾(٣)،

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ٢٦.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، حديث رقم: ٤٢٤٤، وقال ابن ماجة حديث صحيح

(٣) سورة الشورى الآية: ١٦.

أو قوله ﷻ: ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [1]، وهؤلاء يمكن تصنيفهم بأنهم الذين يروغون يمينا وشمالا لإبعاد الناس عن دين الله تعالى.

- **ويمكن أيضا أن يعود الضمير على أهل الكتاب** المذكورين في قوله ﷻ:

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ ﴾ [2].

- **وقيل إن الضمير عائد على المشركين** لمخالفتهم الشرائع كلها.

﴿ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾ جمع شريك.

والمعنى أن هؤلاء المذكورين لهم شركاء يخالطونهم، ويشجعونهم على الكراهية لدين الله تعالى، والعمل على تقويضه بالتزيين والتسويل والوعد والتمنية.

قال تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [3]

وجهت الآية خطابها للمؤمنين كاشفة لهم حال المحاجين في دين الله تعالى المبتغين لرد الناس عن دينهم، ونشر الفتنة، فهم في صنيعهم هذا ليسوا متبعين ومنقادين لأهوائهم فحسب بل تابعين لآخرين جعلوهم شركاء لله في التشريع، فائتمروا بأمرهم وانزجروا لنواهيهم، وانساقوا لرغباتهم في نشر الفرقة والتنازع في المجتمع المسلم وهو مالم يأذن به الله تعالى.

وقد يقصد بالشركة هنا: الإشراك بالله في مقام الإلوهية: أي جعلوا مع الله آلهة تشرع لهم الحلال والحرام على خلاف ما يرضاه الله، حتى وإن لم يقصدوا تأليههم، لكنهم لما

---

(١) سورة الشورى الآية: ١٧.
(٢) سورة الشورى الآية: ١٤.
(٣) سورة الشورى الآية: ٢١.

احتكموا إليهم في الأمور التشريعية جعلوهم مع الله في مقام واحد، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [1].

فلفظ ﴿ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾ لفظ واسع، يشمل الشيطان والمشركين، وأهل الكتاب، وكل من يحارب دين الله تعالى، ولذا نكر كلمة ﴿ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾.

وفي الحديث عن المشركين وأهل الكتاب كمحرضين على الفرقة في العهد المكي دلالة على وجود طرفين يسعون لتفريق المجتمع، أحدهما داخلي، والآخر خارجي.

فالفرقة قد تأتي إلى المجتمع من أسباب داخلية، أو من أعداء خارجين خوفا من تأثيره، واتساع نفوذه مما يؤذن بتآكل قدراتهم، فيسارعون بالهجوم على ما يتوقعونه خطرا عليهم في أرضه قبل أن يأتيهم إلى أرضهم.

﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ ﴾

المراد بـ ﴿ كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ ﴾ ما سيق من قضاء الله تعالى بأنه يؤخر عقابهم إلى الآخرة، أو إلى أجل مسمى في الدنيا.

﴿ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ أي لعجل إليهم قضائهم بالثواب والعقاب حين اقترفوا ما اقترفوا.

والمعنى: أي لولا وعده سبحانه بأن يكون الفصل بين المؤمنين وغيرهم يوم القيامة [2].

أو المراد بالفصل: البيان لما اقترفوه من الحق والباطل، وقد يكون في الدنيا والآخرة.

﴿ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ بأن يكشف للناس مخبات نفوس أهل الباطل وفضح أعمالهم.

وقد يكون المعنى:

لولا أن الله جعل لكشف أهل الباطل موعدا وأجلا لا يعلمه غيره في الدنيا

---

(١) سورة التوبة الآية: ٣١.

(٢) روح المعاني للألوسي ٢٥/ ٢٨، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٣/ ٢٨.

لفضحهم من أول مرة، ولكن شاءت مشيئة الله أن يمهلهم حتى يختبر أهل الحق، ويرى صنيعهم لنصرة الحق.

﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

الظلم وضع الشيء في غير موضعه فيدخل فيه دخولا أوليا دعاة التفرقة من المشركين وأهل الكتاب، ومن سايرهم داخل المجتمع المسلم من المنافقين وضعاف النفوس.

وقد عدلت الآية عن الحديث عنهم بالضمير بالقول(وإن لهم عذاب أليم) إلى الاسم الظاهر ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ للإيذان بأن نشر الفرقة، وتشكيك الناس في الحق الذي بين أيديهم ظلم يستحق صاحبه ما يستحقه من العذاب الأليم الموجع في الدنيا والآخرة.

ثم تصف الآيات حال الظالمين عند نزول هذا العذاب بهم، فيقول ﷻ: ﴿ **تَرَى** ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَٰتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١).

فترسم صورة لهم وهم يعانون العذاب الشديد، ليكون أقوى على ردعهم وزجرهم هم وأمثالهم عن السعي في تفريق المجتمع.

﴿ تَرَى ﴾ خطاب للنبي ﷺ أولاً، لأنه هو الذي يستطيع استحضار صورة عذاب الظالمين في ذهنه بحقها، **ويمكن أن يكون المراد بها** كل امرؤ على تفاوتٍ في استحضار هذه الصورة.

فالمراد من الرؤية استحضار صورة الظالمين يوم القيامة في ذهن المخاطب.

﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ الإشفاق – كما سبق – عناية مختلطة بخوف، وهو يكون قبل نزول الأمر المشفق منه حتى يمكن التأهب والاعتناء بما يرده.

---

(١) سورة الشورى الآية: ٢٢.

فلذلك يكون إشفاق المؤمن في الدنيا كما قال تعالى في الآية التي سبقت من السورة ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ (١).

أما الظالمون دعاة الفتنة والفرقة فهم عند الحساب والجزاء في غاية الخوف والهلع ﴿ مِمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ أي مما عملوا من الأعمال السيئة، ويجوز أن تكون تعليلية أي من سبب ما عملوا، وإنما عبر بالإشفاق في محل الخوف الشديد لبيان تقصيرهم في حق أنفسهم فلم يعتنوا بمصيرها، ويلحظوا حقها من مراقبة أعمالها إلا بعد فوات الأوان، وتأكدهم من وقوع العذاب، كما قال تعالى:﴿ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾.

يقول ابن عاشور: " وجملة ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ حال من الظالمين، والواو واو الحال، أي ترى الظالمين.... وشتان ما بين الاطمئنانين، والاشفاقين " (٢).

والـ ﴿ رَوْضَٰتِ ﴾ جمع روضة وهي الموضوع النزه الكثير الخضر والماء (٣) والمراد هنا أطيب بقاع الجنة وأثرها.

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ﴾ المعنى ما يشاءونه حق محفوظ لهم عند ربهم.

وذلك لأنهم حرموا أنفسهم في الدنيا من كثير حظوظها، وشهواتها استحقوا في الآخرة أن ينزلهم الله المنزل الحسن الكريم الذي ينزه النفس ويمتعها، وأن يعطيهم فوق ذلك ما يطلبونه من رغبات وأمنيات.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما أعده الله تعالى للمؤمنين من الجزاء والنعيم، واستعمل اسم الإشارة للبعيد إشارة إلى بعد المكانة والشرف الذي نالوه.

﴿ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾

---

(١) سورة الشورى الآية: ١٨.
(٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٠.
(٣) تفسير البيضاوي ٨/ ٣٤٧.

الفضل: العطاء الذي يتفضل به، ولا يلزم معطيه فيكون المعنى:

١- **إن هذا الجزاء والثواب ليس بواجب على الله تعالى،** وإنما حصل للعباد من طريق الفضل.

٢ - **أن هذا الجزاء يفضل عن حاجة صاحبه** [١]

وقد يراد بالفضل الشرف والتفوق على الغير [٢] فيكون المعنى أن ما حصل عليه المؤمنون من جزاء في الآخرة بفضل ما ضحوا به في الدنيا من راحة جسد، وبذل مال، وتضحية بالنفس، وسعي في الأرض وغير ذلك [٣].

﴿ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي لا يقدر قدره، فلا تستطيع العقول أن تصف كنتهه وكيفيته، أو أن تبلغ غايته ونهايته، وهو الذي يصغر دونه ما لغيرهم في الدنيا [٤].

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الثواب الكبير الذي وعد الله ﷻ المؤمنين بالحصول عليه في الجنة، وهو بشرى لهم في الحياة الدنيا.

﴿ يُبَشِّرُ ﴾ **والبشرى الإخبار بالخبر السار** الذي يغبط النفس، وتظهر آثاره على بشر الوجه، وفي التعبير بالمضارع دلالة على التجدد والاستمرار، فعلم المؤمن بما أعده الله له في الآخرة عامل دائم لإدخال السرور عليه ودفعه للعمل.

﴿ عِبَادَهُ ﴾ **العبودية: غاية التذلل** مع غاية التعظيم.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ١٧/ ٢٩٤.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥/ ٨٠.

(٣) تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٣٤٧.

(٤) روح المعاني للألوسي ٢٥/ ٢٩، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ٢٠، وتفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٨/ ٣٤٧.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بدل من عباده، وهو يدل على أن العبودية لابد فيها من الإيمان بالله، والإخلاص.

﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ لفظ عام يشمل كل عمل صالح، ويدخل فيه دخولا أوليا الحفاظ على الوفاق المجتمعي، ووحدة المجتمع فإنه موضوع السورة.

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يؤكد لقومه أنه لا يبتغي أي أجر أو نفع مقابل التبليغ والبشارة.

﴿ إِلَّا ﴾ **استثناء منقطع**، أي لا أطلب منكم نفعا على الإطلاق، ولكن اطلب معاملة الود لكي أتمكن من تبليغ رسالتي، **ولا يمكن أن يكون الاستثناء متصلا** لأن ذلك يعني أن بذل الود أمر ينتفع به النبي ﷺ في نفسه، وذلك غير حاصل لأن نفع الدعوة عائد عليهم هم، أما الرسول ﷺ فيكفيه البلاغ.

يقول ابن عاشور: " والاستثناء منقطع، لأن المودة لأجل القربة ليست من الجزاء على تبليغ الدعوة بالقرآن، ولكنها مما تقتضيه المروءة، فليس استثناؤها من عموم الأجر المنفي استثناء حقيقيا.

والمعنى: لا أسألكم على التبليغ أجرا، وأسألكم المودة لأجل القربى، وإنما سألهم المودة لأن معاملتهم إياه معاملة المودة معينة على نشر دعوة الإسلام، إذ تلين بتلك المعاملة شكيمتهم فيتركون مقاومته فيتمكن من تبليغ دعوة الإسلام على وجه أكمل، فصارت هذه المودة غرضا دينيا لا نفع فيه لنفس النبي ﷺ " [1].

﴿ ٱلْمَوَدَّةَ ﴾ المحبة المجردة الخالصة، **ولكنها غير مراده هنا**، لأن المودة انبعاث وانفعال نفساني[2]، **وإنما المراد** بذل أسبابها من صلة الأرحام وكف الأذى

---

(١) التحرير و التنوير ٢٤/ ٨٣.
(٢) التحرير ٢٤/ ٨٣.

ونبذ الكراهية.

وقد يراد الاتباع والإيمان وهو أعلى درجات المودة فإن لم يكن فلا أقل من كف الأذى، وترك الطعن والغمز.

يقول ابن عطية: " الآية مكية نزلت في صدر الإسلام، ومعناها استكفاف شر الكفار، ودفع أذاهم، أي ما أسألكم على القرآن والدين والدعاء إلى الله تعالى إلا أن تودوني لقرابة هي بيني وبينكم، فتكفوا عني أذاكم، فالآية على هذا هي استعطاف، ودفع أذى، وطلب سلامة منهم " [1].

﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ **الاقتراف:** الاكتساب.

والحسنة الفعلة ذات الحسن، وغلب إطلاقها في القرآن على الطاعة والقربى لله تعالى [2].

ولفظ حسنة بالتنكير والتنوين عام يشمل كل حسنة، ويدخل فيها دخولا أوليا مودة رسول الله ﷺ.

فالمعنى: من يكتسب ويأتي حسنة طاعة لله وقربى فإن الله تعالى يجازيه عليها بالزيادة إما في الأجر والثواب كما قال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [3]، فالحسنة يضاعف الله تعالى الثواب عليها حتى يصل إلى عشرة أضعاف.

وقد تكون الزيادة في العمل نفسه بأن يوفق الله تعالى صاحبه لما يزيد العمل حسنا كما وكيفا، فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ [4]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ غفور لمن أذنب، شكور لمن أطاع.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣.
(٢) التحرير ٢٤/ ٨٤.
(٣) سورة النعام الآية: ١٦٠.
(٤) سورة الشورى الآية: ٢٠.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

﴿ أَمْ ﴾ للإضراب والانتقال مع التوبيخ والإنكار.

أي: بل أعرض الكفار عن دعوة النبي ﷺ بمعاملة الود وكف الأذى، فقاموا بطعنه ورميه بافتراء الكذب على الله مع علمهم بأنه الصادق الأمين.

وهذه الآية تمثل صورة من صور الاعتداء القولي يضاف إلى اعتدائتهم السابقة

ومعنى قوله تعالى: كيف يزعمون افترائك الكذب على الله والله يراك ويسمعك، ولا يقر أحد على الكذب عليه، فلو كنت كما يقولون إذن لختم الله على قلبك، أي لسلبك العقل الذي يفكر في الكذب، فتفحم عن الكلام فلا تستطيع
أن تقول شيئا عليه (٢).

وأعرض الله تعالى عن المشركين وخاطب رسوله ﷺ بقوله: ﴿ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾تعريضا بالمشركين.

والمعنى: إن افتراءه على الله لا يهمكم حتى تناصبوا محمدا ﷺ العداء، فالله تعالى أولى أن يغار على انتهاك حرمة رسالته، وأن يذب عن خلاله، فلا
تجعلوا هذه الدعوى همكم، فإن الله لو شاء لختم على قلبك فسلبك القدرة على أن تنسب إليه كلاما (٣).

﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ﴾ جملة استئنافية مرفوعة وليست معطوفة على فعل الجواب حتى تجزم بحذف حرف الواو، وإنما حذف حرف الواو لأنه تعالى يمحق رفعة الباطل وعلوه

---

(١) سورة الشورى الآيتان: ٢٤، ٢٥.
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٤/ ٨٦.
(٣)التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٤/ ٨٦

وغلبته، فطابق بين خطه ولفظه ومعناه تأكيد للبشارة بمحوه محوا لا يدع له عينا ولا أثرا [1].

وجملة ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ استئنافيه.

معناها: أن من وعده أن يمحو الباطل ويفضحه، ويزيل أسبابه، فيدخل فيه الشرك، وهو الباطل المعهود هنا.

﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ ويوضح الحق، ويمكن له بإيجاد أسباب ظهوره فيدخل فيه الإسلام، لأنه الحق المعهود هنا.

وبين جملتين ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ و﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ تقابل وتضاد فيه تناسب مع موضوع السورة، لأن المجتمع يحمل في طياته التنوع ففيه الحق والباطل، والخير والشر، ولابد في النهاية أن يعلو الحق.

﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ قد يراد كلمات الله المنطوقة كالوحي والقرآن، أو كلماته التكوينية المتعلقة بالإيجاد.

فقال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، **التوبة:** الرجوع عن الخطأ وتتحقق بعدة شروط... منها: -

١- **الندم على ما مضى**، والعزم على عدم العودة إليه مستقبلا.

٢- **ترك المعصية وإصلاح آثارها** إن كانت مما يمكن إصلاحه، كرجوع الحقوق، ونصح المضلين، ورد المظالم، والسعي في جمع المجتمع ولم شمله كما سعى في تفريقه وكشف المدبرين.

والقبول من الله تعالى: التجاوز عن ذنوب عباده، وعبر بالعباد دون لفظ التائبين إيماء إلى أن الله تعالى رفيق بعباده لمقام العبودية.

---

(١) نظم الدر في تناسب الآيات و السور للبقاعي ١٧/ ٣٠٣.

﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ صغائرها وكبائرها لمن يشاء بغير اشتراط توبة، أو اجتناب، فلفظ (يعفوا) أعم مما قبله، فإن العفو يكون لأسباب كثيرة منها التوبة، والتفضل من الله تعالى، والإكثار من الحسنات، والأعمال العظيمة كالحج، والشهادة في سبيل الله... وغير ذلك [1].

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾من خير أو شر، فيجازي بالثواب، أو العقاب، أو يتجاوز بالعفو.

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [2]

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فيها معنيان:

الأول: أن يستجيب الله تعالى للذين أمنوا وعملوا الصالحات في دعائهم وطلبهم

الثاني: أن يستجيب الذين آمنوا لله بالطاعة إذا دعاهم إليها.

﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ ﴾ أي يفيض عليهم بالعطاء بما يجاوز ويزيد على ما بذلوه من طاعة وعبادة وما أملوه حين استجابوا له، وهذه الزيادة تظهر في تعظيم الثمرات الدنيوية للطاعة، والتوفيق للمزيد من الطاعات.

الدراسة الموضوعية

قدمت الآيات السابقة منهجا لكيفية التعامل مع الفرقاء داخل المجتمع حرصا على سلامة المجتمع، وعدم اتساع الفجوة بين أبنائه، لكنها مع ذلك تلامس الواقع وتعلم أن هؤلاء الفرقاء الذين جنحوا للفرقة وشق المجتمع قد لا يجدي معهم هذا التعامل، وأنهم سيكملون سيرهم في تفريق المجتمع، وهدم أركانه مستهدفين عقيدته الدينية، لأن الفكرة الدينية هي المنطلق لكل مجتمع، والأساس لكل حضارة ونهضة".

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٤/ ٩٠.

(٢) سورة الشورى الآية: ٢٦.

ولذا فإنهم يبدأون في إثارة الشبهات، وإلقاء الشكوك حول دين الله تعالى بمجرد أن تسنح لهم الفرصة دون مهل.

ومن هنا تنتقل الآيات من الحديث عن الفرقة إلى الحديث عن الخصومة اللفظية مباشرة دون الاستطراد إلى آيات أخرى، فما إن تسن مبدأ عدم المحاجاة كحل لعلاج الفرقة ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ حتى تتحدث عن سلوك الفرقاء، فيقول ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾.

وهم في المحاجة على قسمين:

القسم الأول: يحاجج ويقابل الحجة بالحجة، والرأي بالرأي، والقول بالقول طلبا للإقناع ودفاعا عن رأيه بالدلائل والبراهين دون أن ينشروا البلبلة والفتن في صفوف المسلمين.

وهؤلاء يتركهم الله ﷻ ويأمر المؤمنين بالرد عليهم من خلال كتابه الحق، ولا يحجر لهم فكرا، ولا يقصف لهم قلما، مثلما حدث مع علي ابن أبي طالب،
وابن عباس **ن** في حوارهم مع الخوارج [1].

---

(١) حدث هذا الحوار بعد أن عاب الخوارج على علي بن أبي طالب ﷺ أن رضي بالتحكيم مع معاوية بن أبي سفيان، وتنازل عن وصفه بأمير المؤمنين في الوثيقة فخرجوا عليه، فأرسل إليهم وجمعهم في دار الإمارة، وأمر أن لا يحضر منهم إلا من حفظ القرآن الكريم.... فقال لهم: أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا، بيني وبينهم كتاب الله ﷻ، يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ (النساء ٣٥) فأمة محمد **غ** أعظم دما وحرمة من امرأة ورجل ونقموا علي أنَّ كاتب معاوية كتب علي بن أبي طالب، وقد جاءنا سهيل بن عمرو، ونحن مع رسول الله **غ** بالحديبية، حين صالح قومه قريشا، فكتب رسول الله **غ** : " بسم الله الرحمن الرحيم ". فقال: سهيل لا تكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال: " كيف نكتب ؟ " فقال: اكتب باسمك اللهم، فقال = =رسول الله **غ** : " فاكتب: محمد رسول الله " فقال: لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك. فكتب: هذا ما صالح محمد بن عبد الله قريشا. يقول: الله تعالى في كتابه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(سورة الأحزاب الآية: ٢١)، كما أرسل ابن عباس **م** إليهم فحاورهم حتى

أما القسم الثاني: فلا يبحث عن الحجج، وإنما يبتغي إثارة الفتن والشبهات، ونشر الكراهية، وبث روح البغضاء والعداوة، وهم الذين عبرت عنهم السورة بقوله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، وتعتمد أساليبهم على:

١- **المحاجة والمخاصمة في دين الله تعالى،** والتشكيك في جدوى أوامره ونواهيه.

٢- **المماراة والإكثار من نشر الشبهات** وترديدها بطرق متعددة حتى تترسخ في أذهان الناس، وتستقر في عقولهم.

٣- **الطعن والتجريح في الأفراد القائمين على خدمة الدين الإسلامي** بدءا من الرسول ﷺ وكل من سار على هديه في الدعوة لدين الله تعالى.

وقد وضعت الآيات مجموعة من المعالجات لظاهرة العداوة اللفظية والتلاسن... منها: -

١) **الاستعانة بالكتاب للرد على الشبهات** الفاسدة التي تثار حول الإسلام في عقيدته وتشريعاته، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾

٢) **فرض عقوبات تتلائم والمفسدة الحادثة بالمجتمع** فالإسلام لم يحدد لهم عقوبة، وإنما ترك الأمر للمؤمنين ليزنوا الأمر بميزان النفع والضرر، وأن يقرر الحاكم عقوبة تعزيرية في ضوء المصلحة والمفسدة، ولهذا أشار إلى الميزان في الآية السابقة.

٣) **الاعتصام واللجوء لله ﷻ** حتى يلطف بالمجتمع وينتشله من أزمته لأن التراشق اللفظي يمكن أن يولد الكراهية ويمزق المجتمع قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾

رجع منهم أربعة ألاف رجل كلهم تائب (مسند أحمد بن حنبل – مسند العشرة المبشرين بالجنة – مسند علي بن أبي طالب ﷺ، حديث رقم: ٤٦٤)، تاريخ الطبري ٥/ ٧٣)

٤) **بذل الجهد وإخلاص النية في معالجة الأمر** حتى يطرح الله التوفيق للحلول على يد ولاة الأمر، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الرازي: " الآية دالة على أن منافع الأمور والدنيا ليست حاضرة، بل لابد في البابين من الحرث، والحرث لا يأتي إلا بتحمل المشاق في البذر ثم التسقية، والتنمية، والحصد، ثم التنقية، فلما سمى الله تعالى كلا القسمين حرثا علمنا أن كل واحد منهما لا يحصل إلا بتحمل المتاعب والمشاق [١]

٥) **التحليل العميق لما يطفوا من أحداث** على ظهر المجتمع وعدم الاستهانة بها، بل لابد من الغوص في البحث عن سببها، ومصدرها داخليا وخارجيا، والوقوف على المحرضين، ومعرفة مآربهم قال الله ﷻ: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾

٦) **الحسم والحزم مع الأيادي الخارجية التي تمتد لإفساد المجتمع**، وتمزيق وحدته.

٧) **اعتماد سياسة الثواب والعقاب**، من خلال إيقاع العقاب بالساعين لتفرقة المجتمع، ونشر العداوة والشقاق اللفظي في مقابل الجزاء والثواب الحسن لمن يلتزم بمنهج الله تعالى، وهذا ما يستشف من قوله تعالى: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وقد قدمت الآيات نموذجا لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع بنموذج الأسرة في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾.

---

(١)مفاتيح الغيب للرازي ١٤/ ٢٧.

فمهما اختلف أفراد الأسرة فيما بينهم فلا ينبغي أن يخرج الخلاف عن دائرة المودة والمحبة، والتآزر على طلب الخير، وكف الأذى والضرر عن الجميع حتى وإن لم تتألف النفوس وتجتمع على شيء واحد.

وكذلك حال المجتمع ينبغي ألا تؤثر تنوعات أفراده اللغوية، والفكرية، وميولهم السياسية على السلم والوئام فيما بينهم، وينبغي لهم أن يتعاونوا على طلب ما ينفعهم، ودفع ما يضرهم.

وقد كان للرسول ﷺ مع قريش قرابة، يؤيد ذلك ما روى عن الشعبي ﷺ قال:**(أكثر الناس علينا في هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ فكتبت إلى ابن عباس م ، فكتب إلي ابن عباس م : " إن رسول الله ﷺ كان واسط النسب في قريش، ولم يكن بطنا من بطونهم إلا وقد ولدوه، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: ما أدعوكم إليه أن تودوني ؛ لقرابتي منكم، وتحفظوني لها ")**[1]

فقد طلب رسول الله ﷺ من قريش أن يؤسس معهم لعلاقة تقوم على الود رغم الاختلافات العقائدية، فهو وإن اختلفوا معه ورفضوا متابعته فلا أقل من مراعاة القرابة والنسب، ومن ثم معاملة المودة التي تتطلب كف الأذى وبذل الخير.

وقد حافظ رسول الله ﷺ على هذا المبدأ خلال وجوده بمكة، كما تجلى في معاملته لعمه أبي طالب، في مقابل مناصبة قريش العداوة له.

فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة نزلت الآيات ببيان كيفية التعامل مع الفرقاء من الأقارب على قسمين.

---

(١) سبق تخريجه ص ١١.

القسم الأول: الذين اختلفوا مع الرسول ﷺ دون أن يناصبوه العداوة، أو يعتدوا عليه بالقتال، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (١).

القسم الثاني الذين ناصبوا الرسول ﷺ وصحابته العداوة والإيذاء، والاعتداء على الأموال فهؤلاء مالهم ود ولا بر، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٢)

وقال ﷻ: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (٣).

ولا يعني نزول هذه الآيات نسخ آية الشورى، والقاعدة التي أسستها آية الشورى من أن الخلاف لا يفسد للود قضية لازالت قائمة، إلا أنها أغفلت الحديث عن كيفية التعامل مع الذين لم يستجيبوا لهذه المبادرة القرآنية النبوية حتى العهد المدني، **حيث أقرت هذه القاعدة** مع الفرقاء المسالمين، ونزل الأمر بقتال المعتدين المضطهدين للمسلمين.

المبحث الخامس
ظهور البغي
المطلب الأول
سمات مرحلة البغي

---

(١) سورة الممتحنة الآية: ٨.
(٢) سورة الممتحنة الآية: ٩.
(٣) سورة المجادلة الآية: ٢٢.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

تواصل الآيات حديثها عن صورة من صور اللطف الإلهي في حماية المجتمع من الفرقة، والعدوان، والبغي، فتشرع في بيان سنته ﷻ في بسط الرزق، فيقول أ : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾.

والرزق: لفظ عام في كل ما ينفع من علم أو جاه أو مال (٢).

والبغي: طلب تجاوز الاقتصاد فما يتحرى كمية أو كيفا (٣).

والمعنى: إن بسط الله تعالى الرزق للعباد سبب لدفع الناس للتطاول على بعضهم بالظلم.

﴿ وَلَوْ ﴾ هنا حرف امتناع لامتناع أي منع الله تعالى البسط عن عباده لتوقع البغي لو ثبت لهم البسط، وذلك لعدة أسباب: –

١– أن الظلم والعدوان يتطلب قوة في الجسد، أو نفوذاً وقدرة كما هو حال فرعون، وكفار قريش، أو زيادة مال كما هو حال قارون، أو حيلة ودهاء، فإذا ما توفر للمرء شيء من هذا دعته نفسه للعلو على الآخرين.

٢– أن الإنسان مفطور على حب المزيد، وعدم القناعة، فلو رزق البسط في أمر فلن يقنع حتى يعلو ويزيح غيره.

ولا يشكل على الآية وقوع البغي من المقدر عليهم العطاء لأنهم وإن ضيق عليهم في الرزق المادي فقد وسع عليهم في رزق الصحة أو غيره، فالآية حينئذ على معناها من ارتباط البسط بالبغي.

---

(١) سورة الشورى الآية: ٢٧.

(٢) ينظر المفردات للراغب ص ١٩٤.

(٣) تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٨/ ٣٥٣، والمفردات في غريب القرآن ص٥٥.

وقد يكون معنى الآية: أن الله تعالى يجري الرزق على حسب ما يراه من حكمة ومصلحة لا حسب أهواء الناس.

يقول ابن عطية: " لو جاء الرزق على اختيار البشر، واقتراحاتهم لكان سبب بغيهم وفسادهم، ولكنه تعالى أعلم بالمصلحة [١].

فتارة يوسع في الرزق لذوي الطبائع السليمة، والنفوس السوية، والقلوب المؤمنة لينفعوا مجتمعاتهم، وتارة يؤتي ذوي النفوس المريضة، والطبائع الماكرة بسطا في الرزق من مال وغيره لحكمة يراها سبحانه، فهي وإن أعقبها بغى في المجتمع إلا أن فيها امتحانا لذوي الهمم لدفع هذا البغي، وتطهيرا للمجتمع من الذنوب، وإرشاد له إلى مواضع زلاته ليصونها واستنفار للهمم في دفع البغي بما يؤدي إلى عودة اللحمة المجتمعية، ولذا ذيلت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾.

يقول ابن عاشور: والجمع بين وصفي "**خبير**" و"**بصير**" لأن وصف "**خبير**" دال على العلم بمصالح العباد وأحوالهم قبل تقديرها، وتقدير أسبابها، أي العمل بما سيكون، ووصف " **بصير**" دال على العلم المتعلق بأحوالهم التي حصلت [٢]

١- وقد تكون (لو) حرف يفيد " امتناع ما يليه واستلزامه لتاليه من غير تعرض لنفي التالي " [٣].

فالمعنى: أن سنة الله جرت بامتناع البسط المترتب عليه البغي، وإن كان هذا لا يمنع من وقوع البغي لأسباب أخرى، ويحمل معنى البسط الممنوع هنا أحد المعنيين التاليين:

أن يبسط الله تعالى للعبد الواحد كل أنواع الرزق من حال، وصحة، وجاه وعلم.... فالرزق هنا اسم جنس يشمل كل ما يمكن أن يكون رزقا.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦.
(٢) التحرير و التنوير ٢٥/ ٩٤.
(٣) الإتقان للسيوطي ١/ ٥٢٦.

ومعنى الآية: امتناع أن يبسط الله تعالى للعبد كل أنواع الرزق، لأنها تؤول به إلى البغي، أي الكبر والبطر، والشعور بالعظمة (١).

٢- أن يبسط الله تعالى الرزق والنعمة الواحدة لكل عباده، لأنهم حينئذ تقع بينهم البغضاء والعداوة والتنافس فيختل عمران المجتمع، ويكتفي كل منهم بما لديه.

وإنما اقتضت حكمته أن يفاضل بين عباده في الغنى والفقر، والصحة والمرض، والعلم والجهل ليتكافل الجميع وتتوازن الحياة، وتتحقق عمارة الأرض.

ويدل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (٢) على سنة إلهية في تأخر النصر والنجاة من الكرب حتى اشتداد البلاء وانسداد الأمل، دل على ذلك التعبير بالفعل المضارع ﴿ يُنَزِّلُ ﴾مع الماضي ﴿قَنَطُوا۟﴾ لما يفيده المضارع من تكرار النزول وتجدده مع حصول القنوط ومضى زمن عليه.

والغيث: هو المطر الذي ينزل بعد طول انقطاع، وأصل كلمة الغيث من الغوث بمعنى: الإعانة والنصرة، ولذا عبر به دون لفظ المطر للدلالة على أنه عندما ينزل يدفع الكرب، وينزل الخصب.

يقول الإمام الرازي: في تفسير قوله تعالى ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٣):.

﴿ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾ يمطرون، ويجوز أن يكون من قولهم أغاثه الله إذا أنقذه من كرب أو غم، ومعناه ينقذ الناس من كرب الجدب " (٤).

---

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٨/ ٢٥٣.
(٢) سورة الشورى الآية: ٢٨.
(٣) سورة يوسف الآية: ٤٩.
(٤) مفاتيح الغيب للرازي ١٧/ ٧٢.

والقنوط: شدة اليأس من الخير (١)، فاليأس قد يدل على وجود بصيص أمل ولو قليل، أما القنوط فيدل على انسداد الأفق، وانقطاع الرجاء﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾ يبسط ويوسع منافعه لتشمل كل مكان، والمقصود أن الغيث عندما ينزل تتعدد منافعه، وتزول كل الشدائد السابقة له، فماء الغيث لا يقتصر على إنبات النبات، بل يزيد مستوى المياه، ويلطف الأجواء، وينظف الأماكن.

﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ **الولي:** الذي تولى عباده بالإحسان إليهم، وبذل المنافع، ودفع الكرب.

الحميد: الذي يصنع ما يحمد عليه.

وليس لتأخر نزول الغيث، وإزالة الكرب الحالة بالمجتمع أي دلالة على عجز منه سبحانه، فآياته دالة على سعة قدرته، وواسع فضله كما قال ﷻ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ (٢)

الآية: العلامة والدليل.

والبث: التفريق والنشر.

والدابة الحي الذي له حركة (٣)، **وهذا يشمل** الإنس، والجن والملائكة، وسائر الحيوان.

ومعنى الآية: إظهار قدرة الله تعالى في خلق السموات والأرض، وتفريق المخلوقات فيهما بما يدل على الكثرة والتنوع في الأصناف، واختلاف الألوان، واللغات، والطباع، وتعدد الأقطار والنواحي، وهذا كله من دلائل قدرته.

---

(١) المفردات للراغب ص ٤١٣.

(٢) سورة الشورى الآية: ٢٩

(٣) تفسير البيضاوي ٨/ ٣٥٥، روح المعاني للألوسي ٢٥/ ٣٩.

ثم بعد هذا الانتشار والفرق يجمعهم الله تعالى متى يشاء سواء في يوم القيامة للحساب والجزاء، وهذا جمع للكل من إنس، وجن، وحيوان....، أو في الدنيا بجمع بعض المتفرقين في الأمكنة بتيسير سبل الالتقاء في مكان واحد، وهذا من الجمع الحسي.

وقد يراد به الجمع المعنوي بالالتقاء في الأفكار، والتأقلم بين الطباع، والتفاهم مع التنوع اللغوي، وجمع الآراء على رأي واحد.

وأيا كان الجمع ماديا أو معنويا، دنيويا أو أخرويا، عاما أو خاصا فإنه خاضع لمشيئة الله تعالى الذي إذا شاء أمرا أراده دون أن يعجزه شيء، لأنه قدير متمكن منه.

ثم علل سبحانه تأخر لطفه بالناس مع سعة قدرته بقوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٣١ ﴾[1].

شرح الآيات:

(ما) الأولى شرطية فعلها ﴿ أَصَٰبَكُم ﴾ وجوابها ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ ﴾ والفاء داخلة على جواب الشرط، وقد تكون **(ما)** موصولة في محل رفع مبتدأ، خبرها ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ فإن كانت شرطية فهي دالة على عموم مفهومها، وإن كانت موصولة فدلالتها محتملة للعموم وللخصوص [2].

المصيبة لغة: إدراك المقصود دون خطأ، من أصاب السهم إذا أدرك هدفه، ووصل إلى المرمى بالصواب [3].

---

(١) سورة الشورى الآيتان: ٣٠،٣١.

(٢) التحرير و التنوير لابن عاشور ٢٥/ ١٠٠.

(٣) المفردات ص ٢٨٧، ٢٨٨، ولسان العرب مادة صوب.

ثم صارت أسماء للأحوال المكروهة من الآلام والأمراض، والأسقام وغير ذلك[1]، لأنها عندما تنزل من الله تعالى تدرك المقصود بها من الأشخاص، ولا تتعدها إلى غيره.

و**(الباء)** سببية، أي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها.

الكسب: العمل الذي يتحره الإنسان من أجل اجتلاب نفع، وتحصيل حظ كسب المال.

وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أنه منفعة له، ثم يجلب له مضرة، ولذا غلب إطلاقه على كسب السيئات، لأن المرء يقدم عليها وهو منجذب إليها، ومعتقد نفعها له، لما جبلت عليه النفوس من حب الشهوات، والشهوات طريق النار.

يقول الإمام الرازي: (لما كان الشر مما تشتهيه النفس، وهي منجذبة إليه، وآمارة به كانت في تحصيله أعمل وأجد، فجعلت لهذا المعنى مكتسبة فيه**)** [2] فالمصائب تأتي بسبب إقدام المرء على الذنوب كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾[3].

﴿ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ من الذنوب فلا يعاقب عليها في الدنيا والآخرة، ولا يسلط بسببها مصائب وعقوبات.

وهذه ارجي آية للمؤمنين في كتاب الله، لأن الله تعالى جعل ذنوب عباده المؤمنين على صنفين، **صنف** كفره عنهم بالمصائب في الدنيا، **وصنف** عفا عنه في الدنيا، وهو كريم لا يرجع في عفوه، وهذه سنة الله مع المؤمنين، فما عفا عنه في الدنيا، عفى عنه في الآخرة، وما عاقب عليه في الدنيا، لم يثنِ عليه العقوبة في الآخرة [4].

---

(١) تفسير الرازي ١٧/ ٤٢.
(٢) مفاتيح الغيب للرازي ٤/ ٥٢.
(٣) سورة آل عمران الآية: ١٦٥.
(٤) ينظر الكشاف للزمخشري ٤/ ١٧٧.

وتوضح هذه الآية أن مما يصيب الناس من مصائب الدنيا ما هو إلا جزاء مترتب على ما عملته أيديهم، ولكن ليس كل الذنوب يجري الله عليها مصائب لاحتمال أن تشمل بعفو منه سبحانه، أو يؤخر الله العقاب إلى يوم القيامة.

- يؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ (١).
- وقوله ﷻ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٢)

ومن الأحاديث النبوية:

- عن الحسن ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:**(ما من خدش عود ، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر)** (٣)

فهذه الأدلة تدل على الارتباط بين المصائب والذنوب، مع شمول عفوه ﷻ لكثير من الذنوب.

وهذا الجزاء الدنيوي يخفف من الجزاء الأخروي فعن أبي سخيلة ﷺ قال:
قال علي بن أبي طالب ﷺ:**(ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله ﷺ:** ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٤) **وسأفسرها لك يا علي: ما أصابكم من مرض، أو عقوبة، أو بلاء في الدنيا، فبما كسبت أيديكم، والله تعالى أكرم من أن يثني عليهم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله تعالى عنه في الدنيا، فالله تعالى أحلم من أن يعود بعد عفوه)** (٥).

---

(١) سورة النساء الآية: ٧٩.
(٢) سورة القصص الآية: ٤٧.
(٣) شعب الإيمان، باب في الصبر على المصائب ١٢/ ٢٥٣.
(٤) سورة الشورى الآية: ٣٠.
(٥) مسند أحمد بن حنبل، مسند العشرة المبشرين بالجنة – مسند الخلفاء الراشدين – مسند علي بن أبي طالب ٢/ ٧٨، حديث رقم: ٦٣٩.

وقد يؤخر الله تعالى عقاب بعض الذنوب إلى الآخرة، ولا يؤاخذ عليها في الدنيا إمهالا واستدراجا.

ثم يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾[1]

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ وما أنتم بجاعلين الله عاجزا عن أن يصيبكم بالمصائب بما كسبت أيديكم، وما لكم آخذ غير الله يتولى أموركم، ويدفع عنكم المصائب بعد وقوعها فالمعجز: الغالب غيره بانفلاته من قبضته، والولي هو: يتولى أموركم، ويخفف عنكم أثرها، والنصير: المعين، الذي يرفع عنكم ما نزل بكم.

والآية تدل على معنيين:

١- **أن عفو الله تعالى عن الناس**، وعدم تسليط المصائب عليهم ليس عن عجز منه سبحانه.

٢- **فتح باب الرجاء والأمل** في رفع المصائب بعد نزولها.

ثم ضرب سبحانه مثلا على قدرته ورحمته بالسفن الجواري، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾[2]

فمن آياته الدالة على قدرته السفن العظيمة التي هي كالجبال في ارتفاعها، فانظر كيف يسيرها الله تعالى في البحر مع ثقلها فلا تغوص لأسفل، بل تتحرك على سطح الماء ذهابا وإيابا بقوة الرياح.

يقول الله ﷻ: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[3]

---

(١) سورة الشورى الآية: ٣١.
(٢) سورة الشورى الآية: ٣٢.
(٣) سورة الشورى الآية: ٣٣.

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ ﴾ولو شاء سبحانه لأسكن الريح فتبقى السفن﴿ رَوَاكِدَ ﴾ أي ثوابت على ظهر البحر لا يستطعن المضي ذهابا أو إيابا.

وهذه الآية لا يستشعرها ويدركها إلا كل ﴿ صَبَّارٍ ﴾ على البلاء والمصيبة، فيرى في المصيبة منح الله ورحمته ﴿ شَكُورٍ ﴾ على نعمه سبحانه في الرخاء ومنحه سبحانه في الشدة.

كما يرى ربان السفينة في الرياح النعمة والنقمة معا، فالريح إن سكنت كانت نقمة على أصحاب السفينة، لأنها تركد عن عملها ولا تستطيع الإتيان به، **ولذا جاء التعبير بـ﴿ رَوَاكِدَ ﴾ بدلا من ثوابت.**

فالركود: السكون بعد الحركة وليس الثبات الدائم، سواء طال ذلك السكون أو قصر[1]، يقول تعالى:﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ [2].

وإن اشتدت الريح كان في ذلك إهلاك لأهل السفينة، فقال تعالى: ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ ﴾ أي يهلكهن ﴿ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ أي بسبب ذنوب أهلها.

﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ من ذنوب أهل السفن، فلا يؤاخذهم بها، " أو يعفو عن كثير من الناس الذين في هذه السفينة الموبقة فينجيهم بعوم، أو بحمل على خشبة وغير ذلك " [3].

يقول ﷻ: ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [4]

---

(١) لسان العرب مادة ركد، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آباي ٣/ ٩٧.
(٢) سورة الشورى الآية: ٣٤.
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات و السور ١٧/ ٣٢٢
(٤) سورة الشورى الآية: ٣٥.

﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ﴾ منصوب على فعل مقدر مدخول عليه لام التعليل، أي لينتقم منهم، وليعلم الذين يجادلون، ولما كان النصب فيه تقدير (أن) أي ولأن يعلم الذين يجادلون في آياتنا قُدر قدر منه اسم يكون مبتدأً خبره ما دل عليه السياق.

والمعنى: علمه سبحانه بالمجادلين عند هذا حاصل، أو علم المجادلين بانعدام الخلاص إلا به سبحانه متحقق عند هذا كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (١)

فوقوع المصائب يحدث علما راسخا بانعدام الخلاص إلا به سبحانه فيرتدع المجادلون في كل مكان وزمان عن محاربة دين الله تعالى لعلمهم حينئذ أن الله هو الذي ينزل المصائب، وهو الذي يرفعها، فيهلك أقواما وينج آخرين.

يقول الزمخشري: " يجمع بين ثلاثة أمور: هلاك قوم، ونجاة قوم، وتحذير آخرين"(٢)

الدراسة الموضوعية

عندما تتوتر العلاقات بين الأفراد، وتنتشر روح العداوة، ويشيع خطاب الكراهية والخصومة والتراشق اللفظي، فإن القلوب تحتقن، والنفوس تتحفز تحينا للحظات الانتقام، فإذا بسط للإفراد أسباب القوة والرزق التي تساعد على البغي، فإنه يستخدمها للعدوان والبغي على الطرف الآخر.

وهذا ما أشارت إليه الآيات في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾

ويمكن أن يستنبط من الآيات عدة ملامح للفترة التي يبغي فيها بعض أفراد المجتمع على بعض:-

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٦٧.

(٢) الكشاف للزمخشري ٤/ ١٧٩.

١- **بسط الرزق وأسباب القوة للفئة الباغية استدراجا وإمهالا لهم**، وتربية وتمحيصا للمجتمع.

٢- **انتشار الذنوب**، وإفراط الناس في المعاصي، وضعف ولايتهم لله ﷻ ودينه.

٣- **طول فترة البغي واشتداد وطأتها** حتى ينقطع الأمل ويصاب الناس بالقنوط.

والخلاص من هذا البغي مرتبط بمشيئة الله تعالى الذي يقدر له وقته وكيفيته

فالبسط في الرزق يجعله الله تعالى بقدر مرتبطا بمشيئته، فإذا شاء الله تعالى منعه، فحجب عن الفئة الباغية أسباب قوتها، ومنح الفئة الأخرى ما تدفع به البغي، فيأتي الفرج كالغيث، تنجلي الغمة، وينفرج الكرب، وتعود اللحمة للمجتمع، وتتعدد أوجه الخير، وتنتشر الرحمة.

كما يفتح الله ﷻ باب العفو، فيعفو عن الذنوب والمعاصي، وينزل لطفه بالعباد

وما كان نزول البغي ورفعه إلا ليعلم المعاندين والجاحدين لآيات الله تعالى بقدرة الله ﷻ في إنزال العقاب بالمجتمع ورفعه متى شاء، وأنه لا مخلص لهم من عذابه إلا هو، فيرتدعوا عن عصيانه، ويخافوا من عقابه، ويتوبوا إليه.

المطلب الثاني
علاج البغي

تحدثت الآيات السابقة عن عدد من النعم، كبسط الرزق، وسلامة الناس من أهوال البحار، والخلاص من المصائب، ونزول الغوث، والسلم الاجتماعي.

ثم فرعت هذه الآية الذكر بأن هذه النعم نعم دنيوية، قصيرة لا ينبغي للعاقل أن يجعلها غاية سعيه، وإنما يسعى لعمل الآخرة الذي يطلب هذه النعم بنية خالصة لله تعالى لتقوم باستخدامها فيما يرضي الله أ .

وقد أوردت الآيات صفات المجموعة التي يوفقها الله تعالى لهذا الفهم الجامع بين صلاح الدنيا والآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ ﴾ (١).

الدراسة التحليلية

﴿ فَمَآ ﴾ الفاء للتفريع، **(ما)** موصولة متضمنة معنى الشرط.

﴿ مِّن شَيۡءٖ ﴾ للتعميم، فكل ما يؤتاه الإنسان في هذه الدنيا من الغنى، والعلم، والمال، والجاه، وكثرة الأهل، والسلم الاجتماعي هو متاع مؤقت بفترة الحياة الدنيا.

﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ تعالى من ثواب ونعيم ﴿ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴾ أفضل وأدوم.

وينال هذا النعيم الدائم، والثواب الباقي الذين آمنوا واتصفوا بالصفات التالية: –

الصفة الأولى: الإيمان، قال الله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

والإيمان: التصديق القلبي بكل ما أمر الله به، فيدخل فيه الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وتظهر أماراته في عمل الجوارح وفق ما صدقه القلب.

الصفة الثانية: التوكل، قال ﷻ: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

و**التوكل:** اعتماد القلب على الله تعالى في استجلاب النفع، ودفع المضار سواء في أمور الدنيا والآخرة.

والتعبير بالمضارع ﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ لبيان تجديده كلما تجدد لهم أمرا فهم يفوضون إلى الله تعالى تحقيق رجائهم فيما يريدون، ودفع مخاوفهم التي يخشونها.

وعبر بـ﴿ رَبِّهِمۡ ﴾ولم يقل بـ(الله)، لأن الرب هو الخالق الرازق المنعم على عباده تفضلا منه ومنة.

فيكون في التوكل عليه طمع في عطاء الله تعالى ثقة فيه لحسن رعايته لعباده، ورفقه بأحوالهم، فالربوبية تعبير عن أفعال الله تعالى للعباد.

---

(١) سورة الشورى الآية: ٣٦.

أما التعبير بلفظ (الله) فيشير إلى حقوق الله تعالى على العباد، فلو توكل العبد معتمدا على ما يقدمه لله من طاعة لما أيقن ووثق في تحقيق مطلوبه، لأن عمل العباد منوط بالتقصير، الذي يقصر الطمع فيما عند الله.

فعبر بـ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ ليكون التوكل مقترنا بالثقة والرغبة فيما عند الله تعالى.

وفي التعبير بـ﴿ وَعَلَىٰ ﴾ تمثيل للإسناد، والتفويض إليه بالحمل عليه، لأن الحمل أبين في الراحة، وأظهر في البعد عن الهم والمشقة [1].

وفي تقديم الجار والمجرور على الفعل بيان لإفرادهم لله تعالى بالتوجه إليه في كل مهم دون غيره.

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[2]

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ انتقل الله تعالى من الحديث عن صفاتهم الباطنة القلبية إلى صفاتهم السلوكية الظاهرة، وفيها قدم التخلية على التحلية، فأعاد سبحانه الوصف بالاسم الموصول ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ ولم يكتفي بالعطف (ويجتنبون)، كما عطف ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ للاهتمام بالصلات التي بعد اسم الموصول إذا تؤلف كل صلة بما عطف عليها جانبا مهما من جوانب الشخصية القيادية.

فالصلة الأولى: تتحدث عن الجانب القلبي.

والصلة الثانية: تتحدث عن ضبط النفس من الجانب السلوكي.

والصلة الثالثة: تتحدث عن تزكية النفس.

والصلة الرابعة: تتحدث عن الجانب الاجتماعي.

الصفة الثالثة: اجتناب الكبائر، قال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ ﴾.

---

(١) نظم الدر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٢٥/ ٣٢٨.

(٢) سورة الشورى الآية: ٣٧.

والمعنى: يبتعدون عن الكبائر، وهي كل فعل أوعد الله عليه بعذاب شديد في الآخرة، أو رتب عليه حدا أو عقوبة في الدنيا.

﴿ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ الأفعال الموصوفة بالشناعة، التي ينكرها ويستقبحها الشرع والعقل والطبع [1].

الصفة الرابعة: المغفرة عند الغضب، قال تعالى: ﴿ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ظرفية لقوله تعالى: ﴿ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أي هم يغفرون عندما يغضبون.

﴿مَا غَضِبُوا۟ ﴾ الغضب إحدى القوى التي يصدر عنها كثير من الكبائر، كالقتل والجراح، والشتم، والضرب.

المغفرة: الستر والتجافي في الظاهر [2].

والمراد: يمسكون أنفسهم عن الاندفاع مع داعية الغضب، فيتجافون عن الأعمال التي يقتضيها الغضب.

فيترتب على ذلك أمران:

١- **أن أفعالهم ليست ردود أفعال،** أو مؤقتة بأحداث معينة، وإنما مبنية على رؤية وتفكير، سواء مع المسلمين أمثالهم، أو غير المسلمين.

٢- **أنهم في حالة الغضب لا يصدرون أحكاما،** ولا يمارسون أفعالهم، لعلمهم بأن الغضب يصاحبه خلل في الرؤية، وغلبة لشهوة النفس، ورغبة في الانتصار والتشفي.

أما بعد زوال الغضب فالأمر خاضع للدراسة والتفكير.

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [1]

---

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٤٦١.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب ص ٣٦٢.

الصفة الخامسة: الاستجابة لله تعالى، يقول ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ ﴾ أي استجابوا لدعوة الله لهم للإسلام على لسان النبي ﷺ بلا كراهية ولا تردد، ثم أكدوا على تلك الاستجابة بتنفيذ كل ما أمرهم الله به.

وفي (استجاب) زيادة معنى على مجرد (أجاب)، لأن السين والتاء للطلب فالمعنى: طلب أن يفعل الإجابة، فالمراد – والله اعلم – أنه رغم الصعاب والشدائد، والإغراءات التي تدفعهم للإعراض عن أمر الله تعالى، فإنهم يطلبون

إجابة أمر الله تعالى في كل ما أمرهم به.

الصفة السادسة: إقامة الصلاة، يقول تعالى: ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

الصفة السابعة: الشورى، يقول ﷻ: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

الأمر: الشان، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال[٢]

والشورى: تبادل الرأي للوصول إلى الصواب، والفائدة الموجودة.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي كل أمورهم التي تعن لهم يتشاورن فيها ولا ينفردون برأي، فإذا وقعت بينهم واقعة اجتمعوا، وتشاوروا حتى يخرجوا برأي، وفي وجود هذه الآية في السورة مع مكيتها دليل على أن الشورى ليست مقتصرة على النظام السياسي بل تشمل كل أمر تبدو للمسلمين فيه مصلحة.

الصفة الثامنة: الإنفاق، قال تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي هم من كل ما أعطاهم الله من مال، أو علم، أو جاه... يعطون.

وعبر بالمضارع ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ للدلالة على الاستمرار والديمومة وإن قل ما بأيديهم.

الصفة التاسعة: الجمع بين طلب الانتصار والعفو، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ

---

(١) سورة الشورى الآيتان ٣٨، ٣٩.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب ص٢٤.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ أي إذا نزل بهم اعتداء وعدوان سعوا في دفعه والانتصار لأنفسهم.

والآية تقرر في البداية تعرضهم للبغي، وهذا من سنة الله تعالى، أن يتعرض أهل الحق، ودعاة الوحدة للبغي والعدوان من شتم، وتحقير، ومصادرة للأموال، وتعذيب الذوات، والتضييق، والتهجير.... وغير ذلك.

والآية تبين حقهم في دفع البغي والانتصار، وبل وتمدحهم بهذه الآية دفعا للظلم، وقطعا للفساد، وردعا للبغاة، وتغليبا للحق، وإعادة للحقوق.....

يقول ابن عاشور: وإنما أثنى الله تعالى عليهم بأنهم ينتصرون لأنفسهم تنبيها على أن ذلك الانتصار ناشئ على ما أصابهم من البغي، فكان كل من السبب والمسبب موجب الثناء، لأن الانتصار محمدة دينية إذ هو لدفع البغي اللاحق بهم لأجل أنهم مؤمنون، فالانتصار لأنفسهم رادع للباغيين عن التوغل في البغي على أمثالهم، وذلك الردع أعون على انتشار الإسلام إذ يقطع ما شأنه أن يخالج نفوس الراغبين في الإسلام من هواجس خوفهم من أن يبغي عليهم (١).

وحسن المدح بهذه الصفة في سورة مكية، في وقت يتعرض فيه المسلمون للتعذيب والاضطهاد، ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم أو الانتصار لعدة أسباب:

١) **ألا يترسخ الرضا بالظلم**، والشعور بالذل، والضعف والاستسلام في النفس، وأن تظل في النفس عزة، وتوقان لدفع هذا الظلم، وتحين لوقت تسمح فيه الأحداث والظروف بدفعه.

٢) **تربية المسلمين على الحكمة في اختيار الوقت المناسب للانتصار**، وألا يتعجل في طلبه مع التسليم بحق المظلوم فيه، حتى تعظم الفوائد، وتثبت

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥/ ١١٣، ١١٤.

دعائم هذا الانتصار، فما أسهل أن يجتمع بعض المسلمين في مكة ويتعاضدوا لقتل أحد سادة قريش، ولكن الله يريد تعليمهم الحكمة.

وأدخل ضمير الفصل (هم) لإفادة تقوي الخبر، أي لا ينبغي أن يترددوا في الانتصار لأنفسهم، **والمضارع** بـ﴿ يَنتَصِرُونَ ﴾ للدلالة على التجدد فكلما أصابهم البغي تجدد طلبهم للانتصار.

كما يدل على الاستمرار، فطلب النصرة يتطلب جهدا دؤبا، وعملا مستمرا للأخذ بأسباب الانتصار على الظالم، واسترداد الحق الضائع، ودفع الظلم الجاثم قد يستغرق وقتا.

يقول البقاعي: يقومون بالعلاج بما أعطاهم الله من سعة العقل، وشدة البطش، وقوة القلب، والنصر لأنفسهم في محله على ما ينبغي من زجر الباغي عن معادتهم وعن الاجتراء على غيرهم، مكررين لذلك كما كرر لهم (١).

ثم تضع الآيات قانونا حاكما للانتصار بقوله تعالى:﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾

فالأصل أن تقابل كل جناية وجريمة بما يماثلها في العقوبة، لأنه إذا لم توقع العقوبة فتح باب البغي والعدوان، وتجرأ عليه الجميع، وإذا ما تجاوز في العقوبة وقع الظلم.

وإنما سميت المجازاة سيئة لأنها في مقابلتها، ولأنها تسوء الظالم، وقد يستحب العفو لأجل الإصلاح، ولذا قال ﷻ: ﴿ فَمَنۡ عَفَا ﴾**العفو**: التجاوز عن المسيء.

﴿ وَأَصۡلَحَ ﴾ما بينه وبين المعفو عنه، وهذه علة العفو وهدفه من إزالة الشحناء والحقد، وزرع الود، وبذل المعروف، وتقوية آصرة الأخوة الإسلامية.

لذا يكافئ الله تعالى العافين بقوله ﷻ:﴿ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ وهو وعد مبهم لا يقاس أمره في التعظيم للعافين.

---

(١) نظم الدر للبقاعي ١٧/ ٣٣٤/ ٣٣٥.

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ إن الله تعالى لا يحب الظالمين، فلا يترك الظالم بدون عقاب، فمن عفي له من أخيه شيء ثم عاد إلى البغي والظلم فإن اللهﷻ لا يهمله

والظلم المقصود هنا يراد به أحد معنيين: -

١- **أن يبغي ويعتدي المرء على غيره ابتداء**، فهذا ظلم.

٢- **أن يتجاوز صاحب الحق في القصاص**، ويجاوز الحد في إيقاع العقوبة.

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ والذي سعى في دفع الظلم بعد وقوعه عليه ما عليه سبيل، وقد جيء بهذه الجملة عطفا على قوله ﷻ: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ " لبيان أن ما حض عليه من العفو إنما حض عليه إرشادا إلى الأصلح في الأغلب لا أن المنتصر عليه سبيل يوجه حالا أو مالا " (١)

وإنما قيل إرشاداً إلى الأصلح، لأن المنتصر ربما يتجاوز في حال الحدود التهاب الحمية فيكون داخلا في زمرة من لا يحبه الله تعالى.

ولذا عقب على قوله: ﴿ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ بلفظ العموم بتحديد من عليه سبيل، وهم على قسمين كما سلف وسبق.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٢)

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ السبيل: الإثم والعقاب.

﴿ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ ابتداء، أو عند المؤاخذة والقصاص، او بعد العفو عنه (٣)، والمراد يعاملون الناس بغير ما ينبغي أن يعاملوا به من قتل، وأخذ المال، والإيذاء باللسان واليد.

---

(١) روح المعاني للألوسي ٢٥/ ٤٨..

(٢) سورة الشورى الآيتان: ٤٢، ٤٣.

(٣) ينظر اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص الدمشقي ١٧/ ٢١٣.

﴿ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، أي يسعون في الأرض بطلب ما ليس لهم، ونشر الفساد الحسي وهو نوع من أنواع الظلم، لأن الله تعالى وصفه بقوله:﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾، وخصه بالذكر تنبيها على شدته، وسوء حال صاحبه، ويخالف البغي ظلم الناس في أمرين: -

١- أنه قد يقع فيما بين المرء وبين نفسه، بالكبر والغرور والشعور بالعظمة.

٢- أنه قد يكون بالإفساد في الأرض يقطع الزرع، وينشر الخراب والفواحش، وتعطيل مصالح العباد، ونشر الفرقة وزرع الفتنة، ولذا جعل مظروف البغي في الأرض فقال ﷻ ﴿ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي عذاب موجع.

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ إعادة تأكيد على أهمية امتلاك أسباب الانتصار، والقدرة عليه، حتى إذا ما عفا المرء كان عفوه عن قدرة وتمكن، لا عن ضعف وعجز، ولذا عبر بالصبر وهو: حبس النفس على مرادها مع قدرتها على إيقاع غيره.

فإنفاذ المرء العفو والمغفرة مع قدرته على الانتقام والأخذ بحق النفس لا يتأتى إلا بالصبر، وحبس النفس، وكظم غيظها، ولو لم يكن للنفس قدرة على الانتصار لما كان هناك داعي للصبر، لأن عجز المرء لم يترك أمامه خيارا، ولا لنفسه مرادا بالانتصار.

والمغفرة – كما تقدم– التجاوز عن الخطأ، وهي تالية وتابع للصبر، فلا يستطيع المرء التجاوز عن خطا المسيء وكظم الغيظ إلا بالصبر، وقد تكون المغفرة إسقاط للأثر النفسي بترك الشكوى، والصبر إسقاط للنفع المادي من الانتصار والانتقام، وكلاهما من الأمور العظام التي تحتاج إلى عزم وإصرار حتى يتم إيقاعها [1].

(١) نظم الدر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٧/ ٣٣٩، ٣٤٠.

والعزم: عقد النية على العمل، والإقدام على الأمر [1].

أي إن الصبر والتجاوز عن الغير من الأمور التي لا يمكن الإتيان بها بسهولة، وإنما تحتاج إلى عزم خالص، وثبات على الأمر، وذلك لأن الظلم أحيانا يكون شديد الوطئة، موغر في النفس، عظيم الأثر، عميق الجرح، فالتغلب على جراحه لا يتأتى إلا بعزم خالص.

أو أن الصبر والمغفرة لهما من الأهلية والأهمية ما يجعلهما أهلا لأن يعزم عليهما، **فإذا ما عزم المرء وأقدم على الصبر والمغفرة**، صار الصبر والمغفرة لديه أدوات تؤهله للوصول إلى الأمور الجادة، والعالية التي لا يتأتى لأحد الوصول إليها.

*** اعتراض ودفعه:**

مدحت الآية المنتصرين لأنفسهم وجعلتهم من المستحقين لما عند الله تعالى من جزاء ونعيم.

فقال ﷻ: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ ﴾ ثم وصفهم بعدة صفات منها: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾.

وفي المقابل مدحت العفو بقوله تعالى: ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، **فأيهما أفضل الانتصار للنفس أم العفو ؟**

وقد حاول العلماء الإجابة عن السؤال بعدة أجوبة كالتالي: -

١- **ذهب البقاعي إلى أن العفو أفضل** مع الجاني النادم الذي يعترف بالذنب ويطلب المغفرة، وأن الانتصار أفضل مع المصر [2].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥/ ١٢٢، نظم الدر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٧/ ٣٤٠.

(٢) نظم الدر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٧/ ٣٤٠، والقرطبي ٣٩١، والألوسي ٢٥/ ٤٧.

٢- **وذهب ابن عاشور إلى أن "الآية ترغيب في العفو والصبر** على الأذى، وذلك بين الأمة الإسلامية، وأما مع الكافرين فتعتريه أحوال تختلفها أحكام الغفران، وملاكها أن تترجح المصلحة في العفو أو المؤاخذة " [١].

٣- **ذهب ابن عطية إلى أن الانتصار أفضل مع المشركين**، وأن الصبر والغفران أفضل بين المؤمنين[٢].

والذي أراه تفصيل المسألة على النحو التالي:

١) أن الأصل طلب الانتصار قطعا للظلم، ونشرا للعدل، وردعا للظلم، وقطعا للفساد، وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، أما العفو فمرهون بتحقيق الإصلاح، ولذا قرنه سبحانه به، فقال: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾، ولعل هذا ما قصده الإمام البقاعي، لأن الجاني النادم قد أومن من ظلمه، وارتدع من نفسه، أما المصر فلا، **ويتفرع من هذه النقطة أمران:**

أ – أن يجتهد المظلوم فردا كان أو جماعة في طلب النصرة، ودفع الظلم، ولو كلفه ذلك وقتا وجهدا دون استسلام أو جزع كما يقتضيه التعبير بالمضارع ﴿ يَنتَصِرُونَ ﴾.

فإذا ما تحقق له مراده، وتمكن من مظلومه كان أهلا للعفو، وهو حينئذ عفو عن قدرة، فيكون أردع للظالم، أما العفو عن ضعف وعجز فإنه رسالة للظالم بالتمادي والاسترسال.

وهكذا فعل النبي ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم إذ طلب غ من المسلمين في يوم بدر الخروج لملاقاة عير أبي سفيان ليستردوا أموالهم، فلما انتصر على المشركين ببدر، ونصره الله في الأحزاب، وعلا أمره وهابته القبائل، ودخل عليهم مكة

---

(١) التحرير و التنوير لابن عاشور ٢٥/ ١٢٣.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٥/ ٤١.

فاتحا عفا عنهم، لأنهم علموا أن عفوه عن قدرة وقوة لا عن ضعف وعجز، ولذا أذعنوا لأمره ودخلوا في دين الله أفواجا، وكفوا عن حربه.

ب – ألا يكن الهدي الثابت للفرد هوالعفو والتسامح، فيتجرأ عليه الناس، وإنما أصل حاله طلب النصرة، والدفاع عن نفسه، وعن ماله، ولذا عبر بالمضارع ﴿يَنتَصِرُونَ﴾.

أما العفو فيكون حالة عارضة يقدرها بالمصلحة، ولذا عبر بالماضي ﴿عَفَا﴾ ولذا أثر عن النبي ﷺ حثه على الانتصار حينا، وعلى العفو حينا.

فعن عائشة ل قالت: **(ما علمت حتى دخلت علي زينب ل بغير إذن وهي غضبى، ثم قالت: يا رسول الله، أحسبك إذا قلبت بُنَيَّة أبي بكر ذريعيها، ثم أقبلت علي، فأعرضت عنها، حتى قال النبي ﷺ: " دونك، فانتصري "، فأقبلت عليها، حتى رأيتها وقد يبس ريقها في فيها، ما ترد علي شيئا، فرأيت النبي ﷺ يتهلل وجهه)** [1].

يقول الألوسي: " ولعله كان هذا منه ﷺ تعذيرا لزينب ل بلسان عائشة ل أن لها حقا في الرد، ورأى المصلحة في ذلك " [2]

٢) أن الانتصار للنفس سلوك الجماعة المسلمة، والقيادة المتميزة القائمة على الحزم والحسم، وعدم تضييع المصلحة العامة الموكلة إليها، فليس لها أن تصدر عفو في شأن عام، يدل على ذلك أن الله تعالى قرن مدح الانتصار بلفظ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾.

أما صدور العفو من الأفراد عن حق من حقوقهم فلا بأس بل ربما يكون أفضل، لأنه يكون أعون للجماعة والقيادة المتميزة على تأليف المجتمع، ولذا قرنه الله تعالى

---

(١) سنن ابن ماجة، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، حديث رقم: ١٩٨١، ٢/ ٤٨٠، وقال الإمام البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة: إسناده صحيح، ورجاله ثقات، وكان ابن زكريا يدلس ٢/ ٤٨٠.

(٢) روح المعاني للألوسي ٢٥/ ٥٠

بلفظ **(من)** سواء في قوله ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾أو ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾.

٣) **إن الانتصار مقيد بقاعدة عامة وهي مقابلة السيئة بمثلها**، فإن خاف المرء من المجاوزة والبغي كان العفو أولى حتى لا يصبح من الظالمين.

ولذا رتب الله تعالى: أولا ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ثم قال: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾، وأخيرا ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾[1]

ثم بشرت الآية الساعين الدافعين البغاة بالخلاص بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ ﴾، فوصفت الآية الظالمين بالضلال، وهو العدول عن الطريق المستقيم[2]

ورتبت على ذلك حرمانهم من ولاية الله تعالى فقال ﷻ: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾[3].

وهذه الآية تقابل ما ذكره الله تعالى في مقدمة السورة ﴿ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾[4]، وتعقد مصير واحد لكل من الضالين والظالمين، فكل من الضال والظالم محروم من ولاية الله تعالى وتوفيقه، **ومن نتائج هذه الحرمان:-**

---

(١) سورة الشورى الاية: ٤٤.
(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٢٩٧.
(٣) سورة الشورى الآية: ٤٤.
(٤) سورة الشورى الآية: ٨.

١- الخذلان والفشل في الأعمال.
٢- التمادي في الظلم والبغي.
٣- تضيع الجهد المبذول بلا جدوى.
٤- الحسرة على إنفاق المال والجهد.
٥- عدم تحقيق ما يصبون إليه.

أما في الآخرة فينتظرهم:

١) **العذاب في نار جهنم** كما قال في أول السورة ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾، وأكد عليه هنا ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾

٢) **والحسرة**، يقول تعالى: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ أي هل إلى رجعة إلى الدنيا من سبيل حتى نؤمن ونفعل خلاف ما فعلنا سابقا، وهذا دليل على الندم بعد فوات الأوان.

وقيل: هل إلى رد العذاب ودفعه عنا من سبيل ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ وأعيد ﴿ وَتَرَىٰهُمْ ﴾ بعد ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ للاهتمام بهذه الرؤية، وتهويلها.

٣) الخوف والرعب:

ذلك أنهم يعرض عليهم مصيرهم قبل أن يلقوه، ولذا قال ﷻ: ﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ **فالعرض أصله** إظهار الشيء وإراءته للغير، **والمراد هنا** أنهم يعرضون على جهنم .ليروا ما ينتظرهم من العذاب، وفي هذا زيادة في الخوف

٤:) الذل والمهانة

(١) سورة الشورى الآية: ٢٢.

. كما قال تعالى: ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾

والخشوع: انكسار النفس واستسلامها والباعث هنا الذل والمخافة، فـ ﴿ مِنَ ﴾ سببية ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ فإنهم لما نظروا إلى النار انعكس عليهم الخوف ذلا ومهانة وانكسارا.

﴿ طَرْفٍ ﴾ الطرف حركة العين.

﴿ خَفِيٍّ ﴾ أي ينظرون نظرا خفيا لا حدة له فهو كمسارقة النظر.

٥) الخسران الدنيوي والأخروي: قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

ويأتيهم هذا الإيلام على لسان المؤمنين على سبيل الابتهاج، وإظهار المسرة بالسلامة مما لحق بالظالمين.

والآية انتقال من مشهد الظالمين الضالين وهم في النار إلى مشهد المؤمنين وهم يومئذ أمنون مطمئنون من الأهوال، مجتمعون بأهليهم المؤمنين، وقد أخذوا يتحدثون عن الضالين الذين كانوا يريدون غوايتهم في الدنيا، ويشكرون الله تعالى الذي وفقهم لعدم الاستمالة لهم، فقالوا ﴿ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾

والخسران انتفاء الانتفاع بما كان صاحبه يعده للنفع.

لذا فهم خاسرون لأنفسهم في العذاب، وخاسرون لأهليهم بالمفارقة إما في موطن آخر من العذاب إن كانوا مثلهم، وإما في الجنة إن كانوا من أهل الإيمان
ومع هذا وذاك هم خاسرون لكل ما كان معهم في الدنيا من مال، وقوة، وسلطان، وجاه إذ لم يوظفوه في عمل ينفعهم في الآخرة.

٦) الخلود في العذاب:

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ " لا يزايلهم أصلا، ولا يفرغون منه في وقت من الأوقات " [١].

:٧) انتفاء النصراء

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[٢] أي وما كان لهم من أحد ينصروهم ويرفع عنهم عذاب الآخرة، أو يمنعهم من الضلالة والظلم في الدنيا التي كانت سببا في عذاب الآخرة، فانتفت عنهم ولاية النصرة، وولاية الهداية، والسبب والعلة في ذلك أنهم انتفت عنهم هداية الله فما كان لهم سبيل للهداية ولا للنجاة من العذاب ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾، وكأني بهذه الآية ترد عليهم سؤالهم ﴿ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾

الدراسة الموضوعية

تضع هذه الآيات الكريمة علاجا لظاهرة البغي، فتجعل مسئوليته مسؤولية عامة تتطلب أن يختار الأفراد قيادة حكيمة ذات صفات خاصة، ولكنها قبل أن تذكر هذه الصفات تؤكد على أن إصلاح المجتمع، والسعي لسلامته، ووحدته وازدهاره أمر دنيوي لا ينبغي أن يطلب لذاته، وإنما ينبغي للمؤمن أن يكون هدفه من ذلك ابتغاء مرضات الله تعالى، ولذا قال ﷻ: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾.

---

(١) نظم الدر في تناسب الآيات و السور للبقاعي ١٧/ ٣٤٥.
(٢) سورة الشورى الآية: ٤٦.

ذلك أن إصلاح المجتمع سبب لتحقيق أهداف دينية مثل: التمكين لدين الله تعالى، وإتاحة السبيل لممارسة الشعائر الدينية بحرية، والقضاء على الظلم والفساد... وغير ذلك.

أما المجموعة التي يوفقها الله تعالى لهذه الغاية النبيلة فقد جمع الله تعالى صفاتهم في أربع مجموعات ابتدأ كل منها بلفظ اللذين، وذلك كالتالي:

الأول: قوة الصلة بالله تعالى.

الثاني: تخلية النفس من الرذائل.

الثالث: تحلية النفس بالفضائل.

الرابع: التوازن في معاملة الناس.

وتحت كل مجموعة فصلت الآية الصفات اللازمة للتحلي بها، وهي كالتالي: -

المحور الأول
قوة الصلة بالله تعالى

وتساعد هذه المجموعة على تقوية صلة المصلحين بالله، وذلك من خلال حقيقتين:

١) الإيمان:

وهو يعطي القائد شعلة إيمانية تخرجه من العزلة الفردية إلى الانفتاح على المجتمع، وتحمله مسئولية الله ﷻ فلا يهمل ولا يقصر في إصلاح المجتمع، وتعبيده لله، ولا يدخر جهد في قضاء حاجات أفراده، متخوفا من سؤال يسأل عنه يوم القيامة.

٢) التوكل:

فالاعتماد والتفويض على الرب الخالق، العالم بطبيعة النفوس، وما أودع فيها من قوى وطاقات، وما فطرها عليه من تنوع واختلافات، والخبير ببواعث النفوس، يجعل القائد يقدم على عمله مستعينا باللطف الإلهي، فيلهمه كيفية قيادة الناس، وسياسة اختلافاتهم ليجعلها تتلاءم ولا تتنافر، وتتعاون ولا تتناحر، تتحاب ولا تتعادى.

المحور الثاني
تخلية النفس من الرذائل

ويقصد به تطهير النفس بحيث تكون الأعمال البدنية والأخلاقية الصادرة عنها سليمة لا تشوبها شائبة، **وذلك من خلال صفتين:**

١- اجتناب المعاصي والكبائر

فلا شك من أن القائد الذي يعود نفسه على تحمل المسئولية، وأداء التكاليف المنوطة به، وضبط أفعاله، والتحكم فيها وفق ما يمليه عليه ضميره يسهل عليه أن يطلب من الاتباع الاقتداء بطريقته، وهذا يساعده على حل المشكلات المجتمعية بالحلول التشاركية التي تلزم كل فرد بأداء واجب اجتماعي
بدلا من أن يكون له حقوق بلا واجبات.

٢- الاعتدال والاتزان الخلقي:

إن القائد مكلف بسياسة الناس لما ينفعهم، ودفع عنهم الضرر، وتبصيرهم بمصالحهم، ولكي ينجح في مهمته عليه أن يؤلف قلوب الناس من حوله حتى يأتمروا بأمره، وينزجروا عن نهيه، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان رحيما كريما يتجاوز عن أخطائهم، ويعفو عن سياءتهم، ويتجاوز عن زلاتهم، ويراعي مشاعرهم، ويتعامل معهم بود ولطف بعيدا عن القسوة والجفاء كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [1]، ولا يستطيع ذلك إلا بحسن الخلق، والغضب أحد العوائق أمام حسن الخلق، إذ يتلف الفكرة، ويفسد القوى الأخرى، ويسلب المواهب، ويدفع للانتقام، فيعجز العقل عن أداء عمله، ويخرجه عن حالة الاتزان، لذا جاء الحث على المسامحة، وترك الإساءة في حال الغضب.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

المحور الثالث
تحلية النفس بالصفات القيادية المؤثرة

١- الاستجابة للرب:

وهي صفة عامة تدل على عموم الطاعة، وتمام الانقياد، وكمال الخضوع لله ﷻ، **وعبرت بلفظ الرب** لتكون هذه الطاعة مقرونة بالحب القلبي ذلك الدافع القوي الذي يسيطر على النفس، ويدفع بها للطاعة بسهولة ويسرا.

وإنما تولد هذا الحب من استشعار المرء بربوبية الله خالقه، ورازقه، والمنعم عليه بكل النعم الحسية والمعنوية الدنيوية والأخروية.

٢- إقامة الصلاة:

والصلاة ذو طاقة روحانية عالية، تنير القلب وتبث فيه الطمأنينة والأمل، وترزق المرء التحمل والصبر، وتنشطه للعمل، وتطرد الكسل.

يقول ابن القيم: " الصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفاسد الدنيا والآخرة، وهي منهاه عن الإثم، ودافعة لأدواء القلب.... وكاشفة للغمة "[١].

٣- الالتزام بالشورى:

من أهم صفات القيادة الناجحة الانفتاح على المتبوعين، والاستماع إلى آرائهم وخبراتهم، واحترام كافة وجهات النظر، فإن ذلك يساعد على الحصول على معلومات دقيقة، وحلول شاملة لكل القضايا والمشكلات التي تواجه المجتمع، ويؤلف المتبوعين وقائدهم، قال تعالى: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾[٢].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ١/ ٤٨٠.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

يقول الرازي: " الفائدة في أنه تعالى أمر الرسول ﷺ بمشاورتهم وجوه:

الأول: أن مشاورة الرسول ﷺ إياهم توجب علو شأنهم، ورفعة درجتهم، وذلك يقتضي شدة محبتهم له.

والثاني: أنه ﷺ وإن كان أكمل الناس عقلا إلا أن علوم الخلق متناهية فلا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح مالا يخطر بباله ﷺ " (١).

٤- بذل العطاء:

من صفات القيادة الناجحة، بذلها للناس، وسعيها لما فيه تقدمهم ورخاءهم، ولذا لا يبخلون بما لديهم من مال أو علم أو جهد، أو جاه في سبيل خدمة الناس وإدخال السرور عليهم، وتقدمهم على سبيل المستويات، وذلك لإيمانهم بأن كل ما عندهم إنما هو من عطاء الله تعالى ورزقه.

وما دام العطاء عطاء الله فلا داعي للخوف والقلق، فإن عطاء الله واسع، وهو ملك السموات والأرض لا ينقص من ملكه شيء.

ومثل هذا الاعتقاد يجعل القائد يشارك الآخرين المسئولية، والسلطة، والمكاسب، ويمنحهم حظوظهم من التقدير والثناء، والسمعة الطيبة، ويشاركهم أفراحهم ونجاحاتهم .... فيثقون به، ويفتحون له مكنون صدورهم، ويشعرون معه بالأمان.

كما أن هذه الصفة إذا ما توفرت في جماعة فإن الاختلافات والفروق الفردية تتلاشى أمام الوحدة الجماعية، لأن الحظوظ النفسية من الكبر، والغرور، وحب الظهور، والتنافس، والشح المادي والمعنوي تضمحل لإيقان كل فرد أن ما عنده إنما هو من عطاء الله تعالى لا يمكنه أن يأخذ أكثر مما له، أو يقلل مما عند غيره من عطاء الله تعالى.

المحور الرابع
التوازن في معاملة الناس

---

(١) مفاتيح للرازي ٤/ ٥٣١.

عندما يكون القائد حريصا على وحدة مجتمعه، ومنع التشرذم والتفرق عنه، وقطع بذور التنازع فلابد له من أمرين:

١) **تعليم شعبه معنى الوحدة وإدارة الاختلافات،** والعمل على نقاط الإتفاق وتقويتها، وتقليل نقاط الخلاف والتماس العذر فيها، وهذا الأمر يبدأ فيما يعرف بالشورى، بإيجاد مجالس صغيرة تتسع شيئا فشيئا للاستماع للآراء المختلفة، فهذه هي الدعامة الأولى للوحدة، ولذا سميت السورة بالشورى في سياق حديثها عن إدارة النظام المجتمعي والحفاظ على وحدته.

٢) **إقامة حراسة تأخذ بيد من حديد على** كل من تسول له نفسه التلاعب بوحدة الأمة، وإثارة النعرات والاختلافات سواء كانوا أفرادا من داخله أو من خارجه " حتى لا يطمع في ثغرات الخلاف بينها عدو يستدني بعضهم دون بعض فيستخدمه في خضد شوكة الجميع " (١)

وتظهر ملامح هذه القيادة الحكيمة في القائد من خلال التوازن في قراراته وأفعاله بين القوة والحسم، والصبر والعفو، فينتقل بينهما حسب ما تستدعه حال الوحدة والوئام دون أن يجنح لأحدهما على حساب الآخر على مدار الوقت، فإن استمرت الخلافات في دائرة القول فالحل في الاقناع اللفظي والحوار، أما إن دخل القول دائرة الاتهام، والتشكيك، ونشر الشائعات والشبهات، أو إلى الفعل بالعدوان والبغي فلابد من الحسم والانتصار من هذا الباغي للفرقة.

فحالة البغي تتطلب علاجا متوازنا يتضمن إصلاح العقيدة، وإصلاح العمل، وإصلاح الخلق، مع المزاوجة في معاملة الناس بين الحلم والحسم، الأخذ والعفو

---

(١) النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور ص ١٢٧.

وعندما تأخذ قيادة المجتمع بهذا العلاج القرآني يمكنها الله تعالى من القضاء على دعاة الفرقة، والبغاة في الأرض وما ذلك إلا لأنهم ضلوا عن طريق الله تعالى، وخالفوا نهجه فخذلهم الله تعالى في الدنيا، واستحقوا العذاب في الآخرة، فالبغاة مهما علوا فمآلهم إلى الخسران والهزيمة، **ولذا انتقلت الآية إلى تكرار الوعيد الذي جاء في أول السورة** في قوله تعالى: ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ ﴾ (١).

وفي أوسطها في قوله تعالى: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٢ ﴾.

وفي الآيات التي في آخر السورة ترسم الآيات صورة واضحة لهذا الوعيد وقد جاء يوم الجمع، وجمع أهل الإيمان ودعاة الوحدة والخير للمجتمع مع الظالمين، وهنا أخذ المؤمنون يقرون بخسران الذين ظلموهم وبغوا عليهم، فرحين بما وهبهم الله تعالى من جنات، ونجاهم من مصير دعاة البغي والظلم.

وقد انعكس كل ما حاولوا إيقاعه بالمؤمنين في الدنيا من ألم، وعذاب، وذل، وهوان، وخوف، وفشل، وترهيب للنصراء، والمؤيدين، والأعوان.

---

(١) سورة الشورى الآية: ٧.

المبحث السادس
توصيات السورة

بعد أن أوضحت السورة منهجها في كيفية التعامل مع جميع الأوضاع المختلفة التي تعتري المجتمع من الاختلاف، والفرقة، والتلاسن، والتراشق الكلامي وانتهاء بالبغي والعدوان أكدت على مجموعة من التوصيات والأوامر في ختام السورة.

فقال ﷻ: ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ (١)

الدراسة التحليلية:

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم ﴾ أي تحروا إجابة أمر الله تعالى في كل ما أمركم به، فيدخل في ذلك ما تحدثت عنه السورة من الدعوة لحل الاختلافات بتبادل الرأي، وعدم التسلط، أو مجاراة أهواء الفرقاء، كما يشمل كل أمر أمر الله تعالى به، ودعا إليه.

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ تحذير للمعرضين عن الاستجابة بوجود يوم لا يقدر أحد على رده، أو رد ما أراده الله فيه من عقاب وجزاء.

﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ الملجأ: المكان الذي يلجا المرء للاحتماء به من مكروه ألم به (٢)

﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي: ما لكم من

١- إنكار لأعمالكم مما يمكنكم من النجاة، لأن الحفظة يشهدون عليكم.

٢- ولا فرد منكر ينكر ذلك حتى يتغير حالكم بسبب ذلك الإنكار.

والحاصل عدم إمكانية رد زمان ذلك اليوم، وهو يوم القيامة أو رد مكانه بالاحتماء بملجأ، أو رد العقاب الواقع منه بالإنكار.

---

(١) سورة الشورى الآية: ٤٧.

(٢) نظم الدر في تناسب الآيات و السور للبقاعي بتصرف ١٧/ ٣٤٧.

يقول تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾[1]

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ ﴾ فإن أعرض المدعوين عن إجابة الدعاء الذي دعوتهم إليه.

﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ فليس لك يا محمد أن تقهرهم أو تجبرهم على فعل ما تدعوهم إليه، فهو كما قال تعالى في أول السورة ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِم وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾ وإنما تتحدد مهمة الرسول بقول الله تعالى: ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ **كما قال تعالى:** ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾.

ثم سلى الله تعالى عن نبيه غ لئلا يحزن على إعراضهم ببيان طبيعة البشر التي تجنح بهم عن اتباع الحق، فقال ﷻ: ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ﴾.

﴿ إِذَآ ﴾ أداة شرط تدخل على المتيقن الكثير الوقوع [2]

﴿ أَذَقْنَا ﴾ الذوق: وجود الطعم بالفم، وأصله فيما يقل تناوله دون ما يكثر منه، فإن ما يكثر يقال له الأكل[3]

﴿ رَحْمَةً ﴾ الرحمة: الإنعام والأفضال من الله.

والمعنى: أن من طبع الإنسان عندما تنزل به النعمة وإن كانت قليلة أن يفرح ويطغى، وهذا الطبع غالب على طبيعة البشر، ولذا عبر بإذا الدالة على كثرة الوقوع.

---

(١) سورة الشورى الآية: ٤٨.
(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ص ٤٦٢.
(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب ص ١٨٢.

وقد تكون الكثرة في حق نعمة الله تعالى، فإن ما ينزل الله تعالى من نعم ورحمات على العباد أكثر من المصائب [1]، **فالنعم هي الأصل** أما المصائب فعارضة لأسباب وحكم إلهية.

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾

﴿ وَإِن ﴾ إن حرف شرط يفيد التقليل والشك، ﴿ تُصِبْهُمْ ﴾ الإصابة من إصابة الرمي.

﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ **السيئة:** هي كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية، ومن الأحوال النفسية، والبدنية سواء من فوات مال وجاه، أو حصول مكروه ومصيبة[2].

ويفرق بين المصيبة والسيئة بعدة أمور: -

الأول: أن المصيبة: هي المكروه من الحسيات كالمرض والتعب، **والسيئة:** هي المكروه من المعنويات كالألم النفسي، والهم، والكرب.

الثاني: أن المصيبة تنزل بالمرء تصيبه مباشرة، **أما السيئة** فلا تصيب المرء مباشرة، وإنما قد تصيب غيره من ولد وحميم فتغمه.

الثالث: إن كل مصيبة تجلب معها السيئة بلا عكس، ومن ثم فإن المصيبة أشد من السيئة وأكثر وطأه.

﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ الباء سببية، **والتقديم: يراعى فيه اعتبران:**

١- **اعتبار الزمان فيكون المعنى:** العمل الذي يعمله الإنسان في وقت مؤملا في ثمرته في وقت قادم، ولما كانت أعمال الإنسان في الدنيا سابقة على اليوم الآخر، ولا تنال جزاءها إلا فيه كانت وكأنها تقديم، وعبر باليد لأن أكثر العمل بها.

---

(١) نظم الدر في تفسير الآيات والسور للبقاعي ١٧/ ٣٥٠.
(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب ص ٢٥٢.

٢- وأن يكون التقدم والتأخر باعتبار الأسبقية بأن يقدم عمل ويجعل له أسبقية على عمل آخر.

﴿ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ أي منكر جاحد.

وهذه الآية تتحدث عن طبع آخر جبل عليه الإنسان في حال نزول السيئة، من نسيان النعمة السابقة وجحدها، واليأس من رحمة الله، وذلك لأن السيئة نزلت به بسبب أعماله وذنوبه.

أما المؤمن الطائع فعند المصيبة صبور قانع، يقول النبي ﷺ:**(عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرا له)** (١)

والحكمة في الحديث عن هذه الطبيعة البشرية في سياق تسليته عليه السلام عن إعراض المكذبين، وأمره بعدم التسلط عليهم، **وإجبارهم تكمن فيما يلي:** -

١- إخباره أنهم قبل أن يعرضوا عن دعوتك يا محمد أساءوا التعامل مع نعم الله تعالى بالبطر عند النعمة، والجفاء والكفر عند الشدة.

٢- **لفت الأنظار إلى طبيعة مرتكزة في الإنسان تصده عن الطاعة** والاتباع، وتدفعه للتشكيك والكفر، وهي أن النعمة تزيده بطرا، وإعراضا وكبرا، وبغيا، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، كما إن النقمة تزيده يأسا وقنوط وكفرا.

ولذا فإن الحكمة تقتضي الموازنة في إيراد النعم والنقم على العبد حتى يظل في حال الوسط، ومن ثم فإن التعامل مع هذه الطبيعة يكون بالصبر عليها حتى يزول حال الفرح والبطر، والتذكير بعطاء الله حتى يزول اليأس، وهذا

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد و الرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، ٤/ ٢٢٩٥حديث رقم: ٢٩٢٩.

هو المنهج الإلهي في تربية البشر والذي تعرضت له السورة في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ فالبسط يأتي نقيضه وهو التضييق لئلا يتمادى البغي والبطر، وعندما يحدث القنوط واليأس يأتي الفرج والغيث.

٣- **بيان أن إيمانهم بيد الله** ﷻ الذي لو شاء لسلبهم النعم فارتدعوا عن بطرهم وغيهم.

٤- **أنه لا عذر له على الإطلاق في التسلط والإجبار**، وإن كانت الطبائع مخالفة لما ينبغي أن تكون عليه، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ ﴾[1].

فالمزاوجة في الأحوال، وعدم ثباتها وإطرادها ودوامها على حال واحد يساعد على صلاح النفس وهي من تدبير ملك السموات والأرض العليم بما في هذه التربية من صلاح للبشر، كما أنه القدير على إنفاذ مراده.

ولذا أوقع في مقابل المزاوجة في الأحوال والمعنويات مزاوجة في أصناف الخلق، **فانتقلت الآية التالية إلى ذكر** طرف من الاختلافات والنفع الحاصل منها، فابتدأ سبحانه بذكر الإناث على سبيل الامتنان بخلقهن بقوله ﷻ: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾ وبالتنوين الدال على التصريف والعناية، فضلا عن التقديم في الذكر:" لأن أوهام البشر قد تكتنف العقل فتحجبه عن التأمل في محاسن التدبيرات الإلهية، وترمي به في مهاوى الأسباب الدنيوية فيقع المسلم مع إسلامه في مضاهاة

(١) سورة الشورى الآية: ٤٨.

الكفار في كراهة البنات، وتضيعهن، أو التقصير في حقوقهن " [1] فنبه ﷻ على أن الأنثى نعمة.

ثم انتقل ﷻ **إلى الصنف الثاني في الخلق** والمكمل للصنف الأول، والذي لا يكتمل النفع إلا بهما، فقال ﷻ: ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ وعرف الذكور لحضوره في الذهن، وميل النفس إليه.

ثم أشار ﷻ إلى إمكانية الجمع بينهما بقوله: ﴿ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ ﴾

والحاصل من الثلاث أن الله تعالى قد يرزق المرء إناثا فقط، أو ذكورا فقط، أو يجمع الصنفين من الذكور والإناث.

وفي إيثار لفظ ﴿ يُزَوِّجُهُمۡ ﴾ على لفظ ﴿ وَيَهَبُ ﴾تلميح إلى ما يقع في سنة الله تعالى من التزاوج بين الذكور والإناث، والتي بها يحصل الولد، ولذا ختم سبحانه بقوله: ﴿ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ ﴾ لبيان أمر مخالف لهذه الأنماط الثلاث **وهو العقم: أي عدم إنجاب الولد.**

ثم انتقلت الآيات من الحديث عن مصلحة العباد في التنوع والاختلاف إلى الحديث عن مصلحة أعلى للعباد وهي وجود الوحي السماوي.

فابتدأ سبحانه بالحديث عن عموم الوحي السماوي بين الرسل فقال ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا ﴾أي وما صح واستقام لبشر أن يتلقى كلاما من الله تعالى إلا بنوع من ثلاثة أنواع:

﴿ إِلَّا وَحۡيًا ﴾ أي إشارة سريعة وخفية مثل الإلقاء في القلب، أو الإلهام، أو الرؤية الصالحة.

---

(١) نظم الدر في تناسب الآيات و السور للبقاعي ١٧/ ٣٥٤.

فالمراد به: إيقاع مراد الله تعالى في نفس النبي ﷺ بحيث يحصل له العلم بأنه من عند الله.

﴿ أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ بأن يسمع صوتا ولا يرى مصدره، ويحصل للمخاطب علم بأن ذلك الكلام من عند الله أول مرة بآية يريها إياها، وذلك مثل تكليم الله ﷻ لموسى عليه السلام.

﴿ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ ﴾ وذلك بأن يرسل الله تعالى الملك إلى النبي ﷺ فيبلغه كلاما يسمعه النبي ويعيه، وذلك غالب حال الأنبياء، والملك الموكل بالوحي هو جبريل عليه السلام.

﴿ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴾ علي عن صفات المخلوقين.

﴿ حَكِيمٞ ﴾ يجري أفعاله على موجب الحكمة.

وهذه الآيات عود إلى الحديث عما تحدثت عنه الآيات في افتتاحية السورة من تماثل وحي الأنبياء عند قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ ﴾فأعاد سبحانه الحديث في ختام السور فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ ﴾[1]

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ الكاف كما تقدم بمعنى مثل، أي مثل ما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك، أو بمثل هذه الأنواع الثلاث أوحينا إليك، فرسول الله محمد ﷺ ابتدأ بالرؤية الصالحة، حتى جاءه جبريل عليه السلام في غار حراء، ثم كلمه الله تعالى في ليلة الإسراء والمعراج.

---

(١) سورة الشورى الآية: ٥٢.

﴿ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ الروح ما به حياة الإنسان، **وأطلقت هنا على ما جاء به النبي** ﷺ من شريعة وهداية، لأن ما جاء به ﷺ فيه صلاح حياة الناس كما أن الجسد لا يحيا إلا بالروح.

﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ فالآية تؤكد على حال الرسول ﷺ عند الوحي إليه.

فالمعنى: أفضنا عليك موهبة الوحي في حال خلوك عن علم الكتاب، وعلم الإيمان(١).

ومعنى عدم دراية الكتاب: عدم تعلمه ﷺ لكتاب أو فهمه إذ كان أميا لا يقرا ولا يكتب.

ومعنى عدم دراية الإيمان: عدم علمه بحقيقة الإيمان الشرعي من صفات الله تعالى، وأصول الدين، أو علمه بشرائع الإسلام.

﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا ﴾ الضمير عائد على الوحي أو الروح، وقيل الكتاب.

﴿ نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ جعله الله نورا يخرج به من تعلقت به المشيئة الإلهية في الهداية من ظلمات الضلال والجهل والكفر إلى نور الإيمان والعلم والهدى، ثم أخبر سبحانه عن وساطة الرسول ﷺ في إيصال ذلك الهدى تنويها بشأن رسول الله ﷺ، فقال ﷻ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فهداية الرسول ﷺ هداية إرشاد، ودلالة، أما هدايته ﷻ فهداية توفيق وخلق للإيمان في القلب.

وهذه الهداية تجعل المرء على صراط مستقيم هو الإسلام، ثم فخم الله تعالى من شأن هذا الصراط بنسبته إليه، فقال ﷻ: ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ " لتقرير استقامته ووجوب سلوكه فإن كون جميع ما

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥/ ١٥٢.

في السموات وما في الأرض له تعالى خلقا وملكا وتصرفا يوجب على المرء أن ينتظم في هذا السلك وهذا الصراط [١].

﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ المصير: الرجوع والانتهاء.

الأمور: الشئون، والأحوال، والحقائق، وكل موجود من الذوات والمعاني[٢]

والمعنى: إلى الله تعالى في يوم القيامة ترجع الأحوال والشئون التي وقعت في الحياة الدنيا فيفصل فيها، فيذهب حينئذ تلبيس الملبسين، وحجة المعاندين، ويقر بالحق من كان منكرا، وفي هذا وعيد للمفرقين والباغين، وبشرى للصابرين العاملين لدين الله تعالى..

الدراسة الموضوعية

تضع الآيات الختامية لسورة الشورى توصياتها لكيفية الحفاظ على وحدة المجتمع والتي من أهمها: -

١- الاستجابة لله تعالى في كل أوامره.

٢- الحذر من العقاب الإلهي الذي لا يقدر على دفعه أحد إن وقع.

٣- استمرار النصح والإرشاد للمعارضين، وعدم التسلط.

٤- الحذر من الذنوب والمعاصي التي تؤدي إلى العواقب السيئة.

٥- الإقرار بأهمية الاختلاف ووجوده كسنة إلهية.

٦- الرجوع إلى الوحي الإلهي وعدم تجاوزه.

ثم تصف هذه الآيات المنهج الإلهي للحفاظ على وحدة المجتمع بأنه روح إذ أن المجتمع يحيا بالألفة والتناغم، والوحدة، والتعاون، ويه لك بالتشرذم والتفرق، والانقسام، والبغي، كما أنه نور وصراط يجب سلوكه لكونه من الله تعالى.

---

(١) روح المعاني للألوسي ٢٥/ ٦٠ بتصرف يسير.

(٢) التحرير و التنوير لابن عاشور ٢٥/ ١٥٦.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ؛؛؛

فقد تعرضت خلال هذا البحث لدراسة سورة الشورى دراسة تحليلية تعني ببيان مفرداتها، ومعانيها، ومناسباتها، وروابطها.

وأخرى موضوعية تظهر هداياتها الهادفة إلى تأسيس مجتمع مسلم على قواعد راسخة من قوة العقيدة، والترابط، والتلاحم.

وقد خرجت في نهاية دراستي لسورة الشورى بأهم مقومات نجاح الشورى في توحيد المجتمع، والتي تمثلت فيما يلي: -

١- **قوة العقيدة:** فهي تدفع المرء لطلب الرأي والمشورة من غيره، لعلمه بأنه بشر يصيب ويخطئ، ويحتاج إلى مشورة غيره ليصحح اعوجاجه، ويقيم خطاه، فهو ساع في الأرض مستنير بالشورى في غير ما حكم الله به، وأوحاه إلى رسوله غ، كما تدفع قوة العقيدة المرء إلى الرضا بنتيجة الشورى، والتسليم بقدر الله تعالى.

٢- **احترام الاختلاف والرأي الآخر**، والإقرار بأنه سنة إلهية موجودة في الكون والخلق للنفع والمصلحة.

٣- **الاتفاق بين المتشاورين على آلية للترجيح** بين الآراء عند الاختلاف، وقد ظهر ذلك في حديث سورة الشورى عن اشتراك شرائع الأنبياء (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم) في الدعوة لدين الله مع اختلاف التعبير إذ عبرت عن شريعة محمد غ بلفظ (أوحينا) وعن باقي الشرائع بلفظ (وصى) للدلالة على رجحان ما جاءت به الشريعة الإسلامية المحمدية على باقي الشرائع عند الاختلاف

٤- **أن يقتصر الاختلاف في الرأي على مرحلة النقاش** والدراسة وألا تمتد إلى مجال العمل وإلا دبت الفرقة كما قال الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (١).

٥- **الوعي بأسباب الفرقة وعلاجها قبل وقوعها**، وقد أشارت السورة إلى عاملين أساسيين يبعثان على الفرقة:

أ- **العامل الداخلي**، المنبعث من داخل الأفراد المتمثل في ضعف الإيمان، والنزوع نحو الكبر والغرور وحب التسلط والتفرد والذي يمكن معالجته بالإنابة والرجوع إلى الله تعالى كما قال ﷻ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (٢)

ب-**العامل الخارجي** القادم من أعداء المجتمع الذين يقومون بزرع بذور الفرقة من خلال اجتذاب بعض أفراد المجتمع للانصياع إليهم، وتنفيذ ما يريدون.

ولذا قال الله تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣)

٦- **الحيطة والحذر** لأفعال وتصرفات أصحاب الرأي المخالف من ذوي الأهواء الذين لم يؤخذ برأيهم لإمكانية أن تجنح بهم أنفسهم للمكيدة، والوقوف أمامها بحزم.

---

(١) سورة الشورى الآية: ١٣.
(٢) سورة الشورى الآية: ١٣.
(٣) سورة الشورى الآية: ٢١.

ولذا انتقلت الآيات من دعوة النبي ﷺ والمسلمين إلى البحث عن نقاط التلاقي مع المخالفين على الحديث عن سلوك البعض منهم والمتمثل في المخاصمة للدين والمماراة، ونشر الشكوك للدلالة على أهمية التوازي بين الحوار والاحتياط كما في الآيتين الخامسة عشر والسادسة عشر.

٧- **عدم ترك المجال للفرقاء** للطعن والتجريح في الأخريين مما قد يوقع الانقسام والتمزق، ومواجهة أفعالهم بالنصح والإرشاد تارة، والحسم وإيقاع العقوبة المناسبة تارة أخرى، دل على ذلك قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾(١).

٨- **وجود إدارة قوية للمجتمع** يمكنها انتشال المجتمع من أزماته، والتوازن في معاملة الخارجين عنه بالشدة والحزم تارة، والعفو واللين تارة أخرى حسب ما يتراءى من مصلحة للمجتمع.

هذه هي أهم المقومات التي تساعد على نجاح الشورى في توحيد المجتمع، والتي أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت في بيانها عسى الله أن ينفع بها المجتمعات المسلمة حتي تصبح رائدة ذات مكانة... فإن وفقت فمن الله ﷻ وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان.

---

(١) سورة الشورى الآية: ١٧.

مراجع البحث

القرآن الكريم

١) الإتقان في علوم القرآن: للإمام / عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي ت٩١١، طبع دار الكتاب العربي بيروت – لبنان.

٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية ت ٧٥١، دار الجيل

٣) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام للإمام / محمد بن الطاهر بن عاشور، طبع دار سحنون – تونس–، ن / دار السلام.

٤) البحر المحيط لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بم حيان، طبع مكتبة ومطابع النصر الحديثة – الرياض.

٥) البرهان في علوم القرآن: للإمام / بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، ن/ دار المعرفة للطباعة والنشر.

٦) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز / لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، طبع المكتبة العلمية – بيروت.

٧) تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري ت٣١٠، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٧٠ هـ.

٨) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، طبع دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس.

٩) تفسير البيضاوي للإمام أبي سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر ت ٦٩١ وبهامشية حاشية الشهاب المسماه عناية القاضي وكفاية الراضي للقاضي شهاب الدين الخفاجي ت ١٠٦٩، منشورات محمد على بيضون دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.

١٠)تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن محمد الشهير بالخازن ت ٧٢٥ هـ طبع الحلبي.

١١)تفسير القرآن العظيم لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء ٧٠٠ – ٧٧٤ هـ، طبع الشعب.

١٢)جامع البيان في تأويل القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت٣١٠، منشورات محمد علي بيضون، طبع دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

١٣)الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، طبع دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
١٤)رسائل الإصلاح (٨) أ. د محمد عمارة، طبع دار السلام للطباعة والنشر.
١٥)روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي ت ١٢٧٠ هـ، دار الكتيب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.
١٦)زاد المعاد في هدي خير العباد لأبن قيم الجوزية، إعداد صالح الشامي، المكتب الإسلامي.
١٧)سنن ابن ماجة للحافظ / أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة ٢٠٧ – ٢٧٥ ٩هـ حققه الأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب إحياء التراث العربي.
١٨)شعب الإيمان للإمام أبي بكر أحمد بن الحسيني البيهقي، طبع دار الكتب العلمية بيروت.
١٩)الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق / أحمد عبد الغفور عطار، طبع دار العلم للملايين بيروت.
٢٠)الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم: د / يوسف القرضاوي، طبع دار الشروق.
٢١)صحيح البخاري شرح فتح الباري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ٧٧٣ – ٨٥٢ هـ دار المعرفة بيروت – لبنان.
٢٢)صحيح مسلم بشرح الأمام / محي الدين النووي ت٦٧٦، طبع دار المعرفة، بيروت – لبنان الطبعة العاشرة.
٢٣)فتاوي ابن تيمية، لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب / عبد الرحمن بن محمد قاسم الحنبلي، وساعده ابنه محمد، طبعة الأولى ١١٣٩ هـ.
٢٤)فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي الشوكاني اليمني ت ١١٢٥٠، دار الفكر بيروت.
٢٥)فقه الشورى والاستشارة: د / توفيق الشاوي، دار الوفاء للطباعة والنشر المنصورة.
٢٦)في ظلال القرآن: الأستاذ / سيد قطب، طبع دار الشروق.
٢٧)القاموس المحيط للفيروز آبادي، طبع مؤسسة الحلبي.

٢٨)الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري ٥٣٨ – ٤٦٧ بدون طبعة.
٢٩)اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص سراج الين عمر بن علي الحنبلي، منشورات محمد علي بيضون، بيروت – لبنان.
٣٠)لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ت ٧١١، طبع دار المعارف.
٣١)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، طبع محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية.
٣٢)المستدرك على الصحيحين في الحديث: للحافظ / أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسبوري ت ٤٠٥، م مكتبة ومطابع النصر الحديثة.
٣٣)مسند الإمام أحمد بن حنبل ت ٢٤١، دار صادر بيروت.
٣٤)مفاتيح الغيب لأبي عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي مكتبة الإيمان المنصورة، طبع دار الغد العربي.
٣٥)المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ٥٠٢ هـ، دار المعرفة بيوت – لبنان.
٣٦)الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي إبراهيم موسى الغرناطي المالكي ت٧٩٠ هـ، حققه الأستاذ / عبد الله دراز، المكتبة التجارية الكبرى.
٣٧)موسوعة فقه عمر بن الخطاب.
٣٨)النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن: د / محمد عبد الله دراز، طبع دار القلم.
٣٩)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر البقاعي طبع دار المعارف العثمانية الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦م.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــوع **الصفحة**

المقدمة ٨٠٧
الفصل الأول: التعريف بالسورة وتحديد الموضوع ٨١١
تمهيد ٨١٢
المبحث الأول: التعريف باسم السورة ٨١٣
المطلب الأول: تعريف الشورى لغة ٨١٣
المطلب الثاني: تعريف الشورى اصطلاحا ٨١٤
المبحث الثاني: التعريف بمكية السورة ودلالة ذلك ٨١٦
المطلب الأول: تحديد مكية السورة ٨١٦
المطلب الثاني: دلالات مكية سورة الشورى ٨٢١
الدلالة الأولى: ارتباط قضية الشورى بقضية العقيدة ٨٢٢
الدلالة الثانية: الشورى دعامة من دعائم المجتمع المسلم ٨٢٣
المبحث الثالث مناسبة السورة لما قبلها نزولا وجمعا في المصحف ٨٢٦
المطلب الأول: مناسبة السورة لما قبلها نزولا ٨٢٦
المطلب الثاني: مناسبة السورة لما قبلها في المصحف ٨٢٩
المبحث الرابع: افتتاحية السورة وخاتمتها ٨٣١
المبحث الخامس: الموضوع العام للسورة ٨٣٣
الفصل الثاني: تفسير سورة الشورى ٨٣٤
المبحث الأول: مقدمات ضرورية حول الشورى ٨٣٥
المطلب الأول: الدراسة التحليلية ٨٣٥
المبحث الثاني: الاختلاف ظاهرة اجتماعية داعمة للشورى ٨٣٩
المطلب الأول: الاختلاف سنة إلهية عامة ٨٣٩
المطلب الثاني: الاختلاف بين الناس – الأنواع – الأسباب – العلاج ٨٤٢

الموضــــــــوع	الصفحة

المبحث الثالث: الانتقال من الاختلاف للفرقة ٨٥٧
المطلب الأول: سبل الوقاية من الفرقة، والأسباب الدافعة لها ....٨٥٧...........
المطلب الثاني: كيفية علاج الفرقة إن وقعت ٨٦٧
المبحث الرابع: جنوح الفرقاء إلى الخصومة اللفظية ....٨٧٣....
المبحث الخامس: ظهور البغي ....٨٩٩...............
المطلب الأول: سمات مرحلة البغي ....٨٩٩................
المطلب الثاني: علاج البغي ....٩١٠............
المبحث السادس: توصيات السورة ....٩٣٢................
الخاتمة ....٩٤١................
مراجع البحث ٩٤٤
فهرس الموضوعات ....٩٤٧....

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

تم بحمد الله وحسن توفيقه